الشيخ الإمام داعية الإسلام

محمد متولي الشعراوي

عقيدة المسلم



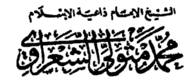
جمع واعداد وترتيب

عبد القادر أحمد عطا



مكتبة التراث الإسلامي
١٤ صفية زغلول القاهرة ت ٣٥٥٣٨٣٨

أ/حسين كامل السيد بك فهمى



عقيدة المسلم

جمع وإعداد

عبد القادر أحمد عطا



مكتبة التراث الإسلامي
القاهرة
عبد الله حجاج
ت ٣٥٥٣٨٣٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وأُولوا الْعِلْمِ قائِمًا بالقِسْطِ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُو العَزِيزُ الحَكِيمُ • إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ ﴾

[سورة آل عمران آيتا ١٨ ، ١٩]

صدق الله العظيم

مقـــدمة

عنى السلف الصالح رضوان الله عليهم بالعقيدة ، حتى إن كلا منهم كان يصنف لنفسه عقيدة يؤكد فيها انتماءه إلى أهل السنة والجماعة ،فجعلوها مستقلة بالتأليف ، أو الحقوها بكتبهم .

وقد عنى صوفية السلف كذلك بمسألة العقيدة نظراً لما كانوا يتهمون به من التشيع أو الرفض ، فكانوا يودعون عقائدهم السنية فى أورادهم ، كما فعل « يحيى الباكوى » حين اتهم بالرفض فكتب لمريديه « ورد الستار » ليرددوه صباحاً ومساء تأكيداً لعقيدة أهل السنة والجماعة .

والعناية بالعقيدة على هذه الصورة نابع من أهميتها فى بناء الإسلام ذاته ، ومن ثم بناء دولة الإسلام مجتمعة ، فما من أمة فى الوجود إلا وهى قائمة على عقيدة ، أياً كانت هذه العقيدة ، وأياً كان محلها من القبول أو الرفض ، لأن القبول والرفض إنما يظهر أثرهما فى التدهور أو الدوام .

فحين تهون شئون العقيدة فى أعين الشعوب تؤذن حضاراتهم بالأفول ، وإنما تهون العقيدة فى أعين الناس تحت شعارات شتى من شعارات المدنية ، وليس شعارات الحضارة . . فتحت شعار الفن كما ترى فى عصرنا الحاضر تمتهن العقائد ، وتصبح موضعاً للتندر والهزل ، وقديماً فى العصر العباسى الذى يصر الباحثون على أنه كان قمة الحضارة ، بينما نؤكد نحن أنه كان سقوطاً من قمة الحضارة ، فى ذلك العصر امتهنت شعائر الإسلام باسم الفن ، وكأن التاريخ يعيد نفسه . واستمع إن شئت إلى الشاعر البحترى وهو يقول وصفاً للربيـــع :

أحل فأبدى للعيون بشاشة وكان قذى للعين إذ كان محرما

فهو يشبه الشجر العارى عن حليته من الأوراق والزهر والثمار بالإنسان الذى أحرم بالحج ، وكلاهما قذى للعين تنبو عنه النواظر العاشقة للجمال . . فلما أحل الشجر من إحرامه ، وارتدى حليته ، صار كالحاج حين يحل من إحرامه ، ويعود إلى زينته .

وتدهورت حضارة بنى العباس إلى ما شاء الله، وجعل عصرنا إلى قمته فى التندر بشعائر الدين ، وعقائد المؤمنين ، حتى أصبح التندر شيئاً يتبادله الجهلاء والمتعلمون على حد سواء .

وظهرت صحوة جديدة نرجو أن تكون مباركة ، ولكن ينقصها ثقافة العقيدة ، ولا تعوزها العقائد السلفية القديمة . . فهى محفوظة لديهم ولكنها لا تفى بحاجاتهم فى ثبات الإيمان ، والاقتناع بقضاياه ، فتلك عقائد كتبت أيام أن كان العلم مقبلا ، فلا تصلح لقوم أدبر العلم من بينهم .

نحن فى حاجة إلى ثقافة العقيدة بقدر حاجتنا إلى نفس العقيدة ، فالعصر عصر المذاهب الوافرة التى لا تدخر وسعاً فى الجدل والنقاش حول العقيدة ، بغية زلزلتها فى القلوب ، ولن يجدى سرد البنود المحفوظة فى هذا المجال .

وهذا الكتاب الذى نقدمة للقراء واف وشاف فى هذا المجال ، فهو زاد للمسلم فى رحلته مع الثقافة ، ومع الجدل الوافد ، ومع الإيمان اللازم لبناء الأمة بناء متيناً على غرارها كان عليه الحال فى الصدر الأول .

وبالله التوفيـــــق . .

عبد القادر أحمد عطـــا

العـــدل الإلهـى

قبل أن نتحدث فى فقه هذا الموضوع نحب أن نقدم مقدمات ، إن تكن مسلمة فالحمد لله ، وإن كان بعضها يحتاج إلى مناقشة فلنناقشها ، حتى نرجع نحن وأنتم إلى قواعد ثابتة ، بحيث نستطيع أن نرد إليها الحكم فى كل شىء نتكلم فيه .

الألوهية والربوبيـــة :

نحن كأهل أديان آمنا بالله سبحانه وتعالى على أنه إله . . والناس جميعاً آمنوا به على أنه رب .

والفرق بين الإيمانين : أن الإيمان بالربوبية يعطى الحق سبحانه وتعالى أنه هو الذى خلق . . فما ادعى أحد أنه خلق نفسه .

والقسمة العقلية فى الخلق قال الله تعالى عنها :

﴿ أَم خُلِقُوا مِنْ غَير شَىءٍ أَمْ هُمُ الخالِقُون ﴾ (١) .

خلقوا من غير شىء قضية يرفضها العقل . إذن فهم قد خلقوا من شىء . . ولم نسمع على مدى التاريخ الطويل أن أحداً ادعى أنه خلقهم أو أنهم ادعوا أنهم خلقوا أنفسهم . . بل سمعنا أن الله تعالى هو الذى قال : إنه خالـــق .

لم يبق إذن إلا الله ادعى أنه خلق ، فثبت الخلق له ، لأنه لا منازع له فيه .

أما قضية الألوهية فهى مطلوب الرسالات . . مطلوب الرسالات أنكم ما دمتم تؤمنون بأن الله هو الذى خلق ، وهو الذى ربى ، فيجب أن تتوجهوا إليه بالتعظيم والعبادة .

---

(١) سورة الطور ، آية : ٣٥ .

فالإيمان بالله إذن كقوة خالقة ، وكقوة بعد ذلك معبودة إيمان بالعقل الفطرى المحصن ، لا يحتاج إلى رسول . . وما جاء الرسل إلا ليعلموا عن الله ذاته وصفاته ومراداته من خلقه .

وإلا فهب أن إنساناً اعتقد تمام الاعتقاد أن وراء هذا الكون قوة ، والقوة هى التى خلقته ، وهو لا يعرف عنها شيئاً ، أمن العقل يهتدى إلى اسم هذه القوة ؟ لا ، ليس بالعقل يهتدى إلى اسمها . . أما بالعقل يهتدى إلى صفاتها ؟ لا ليس بالعقل يعرف صفاتها .

هل يدرك العقل ما الذى تصنعه لمن يجيب مطلوباتها ؟ وما الذى تصنعه لمن لا يجيب ؟

لا . . بل تلك أمور لا تدرك بالعقل . فكان ولابد من البلاغ عن الله سبحانة وتعالى .

ولذلك لما سئل على رضى الله عنه : أعرفت ربك بمحمد ، أم عرفت محمداً بربك ؟ قال :

لو عرفت ربى بمحمد لكان محمد عندى أوثق من ربى ، فما قال لى محمد صدقته فيه . ولو عرفت محمداً بربى ما احتجت إلى رسول . . أى كان الله جاء إلى فى أذنى وقال : يافلان ، أنا أرسلت إليك رسولا اسمه محمد فصدقه . إذن أنا لست محتاجاً إلى رسول ما دمت فى محل الخطاب المباشر من الله سبحانه وتعالى .

ولكنى عرفت ربى بربى ، وجاء محمد صلى الله عليه وسلم فبلغنى مراد ربى سبحانه وتعالى منى .

إذن فالرسل جاءوا ليبلغوا مرادات الله ، ليعرفوا عن الله ، وما هو مراد الله ، فإذا كان ذلك هو إيمان الربوبية ، وبعد ذلك جاء إيمان الألوهية ، وإيماننا بالألوهية الذى هو توجيه العبادة لابد أن يكون عبادة ، فقد جاء الرسل وعرفونا صفات الله .

وهذه الصفات التي عرفناها لله يجب أن تظل كلها لله ، بحيث لا تأخذ صفة حيال صفة أخرى ، أو تتغلب صفة على صفة ، بل كل صفات الله تأخذ حيالها فى خلق الله .

فإذا قيل : إن الله عدل فيجب أن تأخذ صفة العدل مجراها ، وإذا قيل : إن الله قادر ، فيجب أن تأخذ صفة القدرة مجراها . . إذن لا تلغى صفة اختصاص صفة أخرى ، وإلا كان الله تعالى مبغضاً ومجزأ ، فالصفة التى تطغى تمحو الصفة الأخرى .

إذن فنحن نؤمن بأن الحق سبحانه وتعالى له صفات ، وكل صفة قائمة بذاتها ، ومتعلقة بشئونها ، ولذلك نقول عن الحديث فى آخر ليلة من رمضان : « تجلى الجبار بالمغفرة » . نقول : إن هذا الكلام غير منسجم .

والكلام المنسجم هو : تجلى الغفار بالمغفرة ، وليس تجلى الجبار بالمغفرة لأن معنى تجلى الجبار بالمغفرة أن له صفتين ، متعلق صفة منهما جاء من صفة أخرى ضدها ، فالمقام لصفة الجبار ، وما دام سيتجلى بالمغفرة إذن هناك ذنب ، وما دام هناك ذنب فالموقف لصفة الجبار ، إذن فصفة الغفار لا تغفر ، لمخالفة ذلك بصفة الجبار ، لأن الموقف الأصلى لصفة الجبار .

فإذا كان هناك مغفرة ، فالمغفرة من صفة الجبار ، فكأن صفة الغفار استشفعت عند صفة الجبار ليكون الموقف لها ، وبعد ذلك ترحم إذ ليس هناك صفة تطغى على صفة أخرى .

* * *

القدريـــون والجبريـــون :

هنا وقف العلماء . . واختلفت وقفتهم ، فتعصب قوم لصفة ، وتعصب قوم لصفة أخرى . . وتطرف كل فريق فى تعصبه .

فالذين تعصبوا لصفة العدل قالوا : ما دام الله قد كلف بالأمر والنهى

ومن يخالف أوامره ونواهيه يعاقب ، إذن فلابد أن يكون قد أودع فى فطرة الإنسان ما يقدر على الفعل وعدم الفعل .

وإلا فلو أنه لم يفعل إلا الذى يقضيه عليه فإن حسابه حينئذ يبقى بلا معنى . . إذن صفة العدل تقتضى أن يكون الإنسان مخلوقاً على هيئة الاختيار فى أن يفعل أو لا يفعل .

وما دام الحق قد خاطب الإنسان بالفعل كذا ، فمعنى هذا أنه صالح لئلا يفعل . . وما دام قال له : لا تفعل ، فمعناه أنه صالح بذاته أن يفعل ، وإلا كان الأمر عبثاً ، والنهى عبثاً .

فلو كان لا يصلح إلا لأن يفعل لما قال الله له : لا تفعل ولو كان لا يصلح إلا لئلا يفعل ، لما قاله الله له : افعل ، وإلا لكان تكليفاً بغير المستطاع .

إذن فالذين تعصبوا لصفة العدل قالوا : إن الحق سبحانه وتعالى لابد أن يكون قد خلق خلقه صالحين لأن يفعلوا أشياء ولا يفعلوها ، فالمرجح للفعل فيمن يقدر على ألا يفعل ، ولعدم الفعل فيمن يقدر على أن يفعل ، هو الأمر من الله ، والتوجيه منه .

والذين تعصبوا لصفة القدرة ، وأنه ليس هناك شىء فى الكون يحصل إلا بقدرته ، قالوا : لا ، العبد لا يخلق أفعال نفسه أبداً ، الله هو الخالق لكل شىء ، تعصبوا لصفة القدرة .

نقول لهم : أنتم أبعدتم المسألة ، تريدون أن تجعلوا صفات الله تعالى متعاندة متعارضة .

وهكذا نرى الذين تعصبوا لصفة القدرة ، وأنها هى التى تفعل كل شىء ، والإنسان لا يفعل شيئاً أبداً ، سموا أنفسهم « الجبريين » . أى إن الإنسان مجبور على أن يفعل الأشياء .

ونرى جماعة تطرقوا للطرف المناقض ضدهم ، قالوا : إن الإنسان يفعل كل الأشياء ، وسموا أنفسهم « قدريين » .

هؤلاء أمسكوا من طرف ، وهؤلاء أمسكوا من طرف آخر .

والقدريون سموا أنفسهم هكذا لأنهم تكلموا فى القدر نفياً وإثباتاً ، ولكن التحقيق أنهم ليسوا قدريين ، لأنهم لا يؤمنون بوجود قدر من الله تعالى ؛ بل يؤمنون بأن الإنسان حر يفعل ما يشاء .

والآخرون قالوا : لا ، ليس حراً ، بل يفعل أشياء مرسومة له .

هؤلاء تعصبوا لصفة القدرة ، وهؤلاء تعصبوا لصفة العـــدل .

* * *

فى مواجهة التطـــرف :

ولما تطرف هؤلاء وهؤلاء فى الموضوع ، كان لابد من وجود فريق يقول لهم : هذه صفة الله ، وهذه صفة الله ، وما دامت الصفتان لله وجب ألا يتناقضا ، وألا يتعارضا ، بل لابد أن يتساندا ويتعاضدا .

وهذا الفريق الجديد وقف الموقف الوسط ، وقالوا : ما هو مناط خلافكم فى أن الإنسان مجبور أو حـــر ؟

هذا الكون الموجود كله ، أنت أيها الإنسان فيه وحدك ، أم فيه أشياء أخرى ؟ إن كنت وحدك فلنا كلام ، وإن كانت هناك أجناس أخرى معك فلنا كلام آخـــــر .

— قال : بل معى أجناس أخرى .

— قالوا : الأجناس الأخرى التى معك لها اختيار فى شىء ؟ يعنى الشمس لها اختيار فى أن تطلع اليوم أولا تطلع . . القمر . . والهواء له اختيار فى أن يهب أولا يهب . . الأنعام . . الجماد . . كل الأجناس التى تحتك أيها الإنسان منزلة ، هل لها اختيار ؟

— قال : لا . . بالعكس ، فهى تخضع لتسخيرى أنا .

— إذن لماذا لاتملك هذه الأصناف اختياراً . وهل تملك تغيير منهج سيرها وتبعيتها ؟

— لا ، لا تملك ذلك ، لأنها لاتملك الفكر ، والإنسان وحده هو الذى يملك الفكر .

— ما هو الفكر إذن ؟ هيا نتفق على الخاصية التى امتاز بها الإنسان .

إذن أنتم باعلماء لاخلاف بينكم فى أن الأجناس ما عدا الإنسان لااختيار لها ، وأن قانون التسخير هو الذى يملكها .

جاء من يفسر لنا قول الله تعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوات والأَرْضِ والجبَال فأَبَيْنَ أَنْ يحملْنها وأَشْفَقْنَ مِنْهَا وحَمَلها الإِنْسَانُ إِنَّهُ كان ظلُومًا جهولا ﴾ (١) .

قالوا : الإنسان ما تميزه ؟

هل الإنسان فيه حيوانية؟ نعم فيه حيوانية . هل فيه نباتية ؟ نعم فيه نباتية . هل فيه جمادية ؟ نعم فيه جمادية .

إذن القدر الموجود فى الإنسان من الحيوانية ومن الجمادية ومن النباتية يسرى عليها قانونها . أى قانون النبات والحيوان والجماد . . أى ليس له اختيار فى ناحية كونه جماداً ، يعنى أن الجماد له قانون خاص . . فأنا لونظرت لابد أن أقع مثل الطوبة . . لأن قانون الجماد يملكنى .

ولى حياة ، هى النمو ، وأنا لا أقدر أن أتحكم فى نموى ، أنا أنمو بقانون طبيعى ، وليس لى دخل فيه ، ولا أعرفه ، وقبل أن توجد عندى أداة المعرفة أنمو وأنا جنين فى بطن أمى ، أنمو وأنا طفل ، إذن قانون النمو ليس لى دخل فيه .

والحيوانية ، ما معنى الحيوانية ؟ إن فيها حركة ، وفيها إحساسات ،

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٧٢ .

وفيها أجهزة خاصة للحياة ، هل لى دخل فى أى جهاز من هذه الأجهزة ؟ لا . ليس لى دخل فى أجهزة حيوانيتى .

إذن أنا خاضع مسخر . . لااختيار لى فيما فى من جمادية . . ولااختيار لى فيما فى من نباتية . . ولااختيار لى فيما فى من حيوانية .

إذن ماذا بقى من أجهزة تكوينى ؟ بقى العقل والفكر . . والعقل والفكر هما منطقة التمييز .

مناط التكليف من الإنســـان :

ما هو العقل والفكر ؟

أولا : ما هى كلمة « عقل » ، وما هى كلمة « فكر » كلمة عقل مأخوذه من « عقال البعير » يعنى نعقله لكيلا يكون حر الحركة ، فكأن العقل جاء لكيلا أبقى حر الحركة . . يعقل تصرفاتى . . مرة تعقل تصرفاتى بواسطة خلقى . . ومرة تعقل تصرفاتى بواسطة المجتمع . . ومرة تعقل تصرفاتى بواسطة الدين .

يعنى مثلا ، هل يصح أن أمشى عرياناً ؟ لا . . أعوذ بالله ، كيف أمشى عرياناً ؟ لا أقدر ، حتى ولو لم يوجد دين . إذن عقلى هو الذى تحكم فى وضعى من هذا العمل .

وعندما أريد أن آخذ وردة من بستان ، أقول : لا ، هذه ليست حقك ، ولو أخذتها لقال المجتمع : إنك لص . . افرض أن شيئاً خفى عن المجتمع ، تقول : الله لم يحللها لك .

إذن كلمة « عقل » معناها : أنه إنما وضع ليعقل حركة حياة هذا الإنسان . . وما دام قد جاء ليعقل حركة حياة هذا الإنسان فمعنى هذا أنه لو أطلق بلا عقال يعقل حركته لفعل أفعالا لا تضر النفس أو تضر الغير .

وما معنى الفكـــر ؟ :

التفكير فى الأشياء هو : المقارنة بين البديلات . يعنى نعمل هذا أم ذاك . أقول : إن عملت هذا فما الذى يترتب عليه من النفع ، وما الذى يترتب عليه من الضرر؟ ثم أقارن ، فالذى نفعه أكثر أعمله .

إذن الفكر هو للمقارنة بين بديلين . . والحيوان ليس عنده هذه المقارنة بين البديلات ، وليس عنده شىء يعقل تصرفه .

لماذا ؟

نضرب مثلا . . إذا جاء حيوان فأكل ، فإنه لايأكل إلا أنواعاً خاصة عرف بغريزته أنها تنفعه ، أما باقى المأكولات فلا يقربها .

أما الإنسان فليس كذلك ، بل يقول : جرب هذه ، ربما كانت أحلى . إذن فالحيوان ليس عنده بديلات . . عنده أشياء يأكلها وأشياء لايأكلها لا يأكلها .

ومثلا ، إذا أنا أكلت ، ثم أعطيتنى نوعاً من الطعام ، وقلت لى : ذقه فهو طعام حلو ، فإننى أذوقه وآكل منه . . أما الحيوان فبعد أن يأكل وينتهى من الطعام فإنه لا يأكل شيئاً ولو ضرب على أكله . . لأنه ليس عنده اختيار بين بديلات أبدا .

ومثلا أمامنا ترعة ، أومجرى ماء ، فأضرب الحمارلكى يعبرها ، لايمكن أن يعبرها أبداً . . هو يعرف بغريزته أنها لا تدخل فى نطاق استطاعته فلا يعبرها أبداً . .

أما الإنسان فيحاول ، حتى ولو أصيب بالضرر . ولكنه فى الغالب يحتال لينجح .

إذن لابد أن يكون لمثل هذا عقل يتصرف . . إذن فمهمة الفكر أن

يعقل الحركة . . يعقل التصرف . . يعمل المقارنة بين البديلات ، هذه هى منطقة التمييز .

وهناك الفؤاد ، وهو محل المعلومات ، التى لا تطفوا مرة أخرى إلى الذهن لتنافس من جد . هناك أشياء اسمها عقائد ، أصبحت مسائل راسخة فى الوجود ، ولذلك نسميها « عقيدة » . . . أى معقودة لا تطير ، إنما الشىء الذى يتذبذب ، وبعد ذلك نناقشه ، فهو لم يصل إلى مرتبة العقيدة . بل هو فكرة نظرية .

إنما عندما يصل إلى مرتبة العقيدة فإنه يستقر فى الفؤاد ، ولا يناقش فى العقل أبداً ، ويبقى قضية مسلمة ، حتى ولو جاء فى ظاهر الأمر ما يناقضها عقلا .

إذن منطقة التمييز هى منطقة الفكر ، ومنطقة الفكر هى منطقة المقارنة بين بديلات ، وهذه المنطقة التى امتاز بها الإنسان هى مناط التكليف من الحق ، ولذلك يشترط العقـــل .

إن كان الإنسان مجنوناً نقول له : لا ، الآلة المخصصة للمقارنة بين البذيلات تالفة ، وعلى هذا لست مكلفاً .

وإن كان الإنسان صغيراً لم ينضج عقله ، لا يكلف أيضاً ، لأن التكليف يتطلب عقلا ناضجاً ليستطيع المقارنة بين البديلات .

* * *

الله لا يريد إنساناً مجبوراً :

ونقول للجبرية : لو أنك كنت مجبوراً على شىء ، لكان قد استوى تكليف العاقل وتكليف المجنون وتكليف الصغير . . ولكن عندما قال المشرع : أنا لا أكلف إلا العاقل ، فهو يريد من الإنسان هذه الآلة ، وهى العقل ، ليقارن بها بين بديلات . . ولا يقارن بين بديلات إلا من عنده القدرة على فعل أى بديل . . أفعل هذه . . . أو أفعل هذه .

أما من لا يفعل إلا هذه ، وليس عنده البديل الذى يقارنه ، فليس عاقلا ولا مكلفا .

إذن فمنطقة الفكر هى الاختيار بين البديلات ، وما دام هناك اختيار بين البديلات فهناك قدرة على فعل البديل . .

وهنا نسأل : ما الذى يرجح بديلا عن بديل ؟

نقول : العقل والفكر هو المرجح ، ولذلك لم يكلف الله إلا العاقل .

ولعل قائلا يقول : أنا لم أكرم إلا بالعقل .

ونقول له : أنت لم تكرم بالعقل وحده ، أنت كرمت بالعقل ، وبالمنهج الذى يحرسه العقل . . ولذلك لا يبقى لك التكريم إلا إذا كنت على المنهج ، فإذا لم تكن على المنهج فأنت فى أسفل السافلين .

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاه أَسْفَلَ سافِلِينَ ﴾ (١) .

وذلك لأن العقل يختار بين بديلات ، والمهم فى الذى يقارن بين البديلات ألا يكون له هوى مسبق فى بديل . . أن يكون حكم العقل هو الذى يعطى له الهوى ، وليس الهوى هو الذى يعطى له الحكم .

إذن فالعقل يسيطر عليه نواحى أخرى غير الحكم المطلق ، أشار إليها الحق سبحانه فى قوله :

﴿ وَلَوِ اتَّبِعَ الحقُّ أَهْواءهُم لَفَسَدت السَّمٰوات والأَرْض ﴾ (٢) .

إذن ما دامت المسألة على هذا ، فيجب أن نفهم أولا أن الفكر هو المقارنة بين بديلات ، والاختيار بين البديلات لا ينشأ أبداً إلا إذا كانت

---

(١) سورة التين ، آيتا : ٣ ، ٥ .

(٢) سورة المؤمنون ، آية ٧١ .

هناك قدرة على فعل البديل ومقابلة ، ولذلك لم يكلف الله المجنون ، ولم يكلف الله الصغير .

وهنا سؤال هو : هل نحن الخلق الأول هكذا فقط ، أم إذن هناك خلقاً آخر قبلنا ؟

لقد قال الله تعالى لنا عن الملائكة :

﴿ لا يعْصُون الله ما أَمرهُم وَيَفْعَلُون ما يُؤْمَرُون ﴾ (١) .

إذن لو أن الله تعالى يريد خلقاً لا يعصونه أبدا كان خلق ملائكة وخلقنا ملائكة مثل الملائكة . . . وانظر إلى الملاحظة الدقيقة فى عبارة القرآن : ﴿ لا يعْصون الله ما أَمَرَهُم ﴾ . ولم يأْت بصيغة النهى . ثم قال : ﴿ ويفْعَلُون ما يؤْمَرُون ﴾ .

إذن الملائكة بفطرتهم لا يعملون شيئاً مخالفاً ، لأن النواهى إنما تأتى من ناحية الانحراف عن المنهج .

على ماذا يدور مسلك المعاصى فى الإنسان ؟

يدور مسلك المعاصى على شهوتين : شهوة البطن ، وشهوة الفرج ، والملائكة لا يأكلون ولا يتناسلون ، فالمسألة منتهية ، لماذا تكون هناك نواهى ، بل كلها أوامر .

إذن فلو أراد الله خلقاً من هذا اللون لخلقنا مثلهم ، إذن فقوله تعالى :

﴿ أَنْ لَوْ يشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ ﴾ (٢) .

يعنى : لخلقهم على شكل ملائكة . لكن الحق سبحانه لم يشأ ذلك ، لماذا ؟ لأنه يقول : أريد أن أملأ الجنة وجهنم بالاثنين . ولكن هل أملأهما ؟ ظلماً ؟ لا . سأخلق الاختيار والصلاحية للفعل ولعدم الفعل ، وأخلق لهم العقل ، ولن أترك المسألة هجاً ، فلا الصلاحية تكفى ، ولا العقل يكفى ، بل لابد من رسول يقول لهم : هذه نعم ، وهذه لا .

---

(١) سورة التحريم ، آية : ٦ .

(٢) سورة الرعد ، آية ٣١ .

إذن عندى فكر يختار بين بديلات ، وعندى خلقة صالحة لعقل هذا وفعل هذا ، صالح لئلا أفعل ، ولذلك قال لى : أفعل . وصالح لأن أفعل ، ولذلك قال لى : لا تفعل . أى إنه سبحانه خلق الإنسان على صلاحية أن يفعل وألا يفعل . . وهذا يدل على أن ما حدث من الإنسان لم يخرج عن مشيئته ، لأنه هو سبحانه الذى خلقه هكذا . . أى إن مشيئته الله هى أن يصلح الإنسان لأن يعقل ولئلا يفعل .

ولو أرادهم الله تعالى كلهم طرازاً واحداً لم يعجز .

﴿ أَن لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (١) .

يعنى لخلقهم على هيئة لا تأتى منها المعصية على الإطلاق .

* * *

العظمة فى الاختيـــار :

ولكن هل العظمة فى أن تكون الطاعة بالجبلة ، أم أن تكون الطاعة بالاختيار ؟ ولنفرض من أن واحداً عنده اثنان من العبيد ، ربط أحدهما فى سلسلة ، والثانى تركه حراً . . فإذا أراد كلاهما أن ينادى المربوط بالسلسلة ، أيملك أن يجىء ؟ لا ، ستشده السلسلة . وإذا أردناه فسنشده نحن من السلسلة. أما الحر فيجىء بمجرد أن تناديه .

الاثنان حصل منهما مجىء ، فأيهما امتثل الأمر ؟ الحر طبعاً ، ولذلك فهذا معنى قول الله تعالى :

﴿ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

أى : أنتم ملائكة طائعون لى بالجبلة ، وأنا أريد أناساً طائعين بالحب لى ، فى مكنتهم ألا يطيعوا ، ولكنهم يطيعون ، إنما طاعتكم أنتم جبلية ، لا تقدرون على العصيان ، لكنى أريد خلقاً يستطيعون أن يطيعوا ، ويستطيعون

---

(١) سورة الرعد آيه ٣١

(٢) سورة البقرة ، آية ٣٠ .

أن يعصوا ، ومع ذلك يؤثرون طاعتى على معصيتى .

إذن معنى قوله تعالى : ﴿أن لو يشاء الله لَهَدى النَّاسَ جَميعًا ﴾(١) . لخلقهم خلقة بحيث لا يمكن أن يكون معهم انحراف أبداً كالملائكة ...

ولكن الحق أراد غير ذلك . . أراد أن يخلق خلقاً من نوع آخر ، فيه الصلاحية للطاعة ، وفيه الصلاحية للمعصية . . وبعد ذلك يباهى الملائكة بالطائعين . . فأنت ياملاك تطيع بطبعك وجبلتك ، لا تقدر أن تعصى ، لكن هذا الإنسان من الممكن أن يطيع ، ومن الممكن أن يعصى ، ومع ذلك أطاعنى .

كيف امتاز إبليس على الملائكة ؟

لماذا أصبح إبليس طاووس الملائكة ؟ والمزهو على الملائكة ؟

لأنه مخلوق على هيئة أن يطيع ويعصى ، ولكنه أطاع الله الطاعة التى تطيعها الملائكة ، ولهذا فلابد أن يزهو عليهم ، لكن طبيعته أنه مخلوق بعنصرية ، ولذلك تحكمت فيه عنصريته . قال تعالى :

﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كانَ مِنَ الجنِّ فَفَسَق عَنْ أَمْرِ ربِّه ﴾ (٢) .

* * *

آدم أبو الصنفين :

وسيدنا آدم أبو البشر . . والبشر سيكون منهم نوعان : نوع على القانون الطبيعى للبشرية التى تطيع . . ونوع مجتبى مصطفى وهم الرسل . . وآدم أبو الاثنين . .

ولذلك فحينما يقولون : كيف يكون آدم نبياً ويعصى ؟ نقول لهم : اقرءوا القرآن بدقة . . . آدم أبو البشر ، وهو ممثل للطبيعة المعصومة والطبيعة غير المعصومة ، فمسألة الجنة كانت للفطرة الطبيعية ، كلفه الله ، ثم نسى

(١) سورة الرعد ، آية ٣١ .

(٢) سورة الكهف، آية : ٥٠ .

وغفل ثم تاب وأناب ، وقال له ربنا : خذ هذا الدرس وانزل إلى الأرض . اجتباه للنبوة .

إذن فالفترة الأولى كانت تمثل الطبيعة البشرية على إطلاقها ، تطيع وتعصى ، والفترة الثانية تمثل طبيعة الاصطفاء ، أى لا يعصى ، ولذلك لم تذكر له معصية بعد ذلك .

والقرآن دقيق جداً فى عباراته وفى الحروف التى يضعها . قال تعالى :

﴿ وعصى آدمُ ربَّه فَغَوى ﴾ (١) .

يعنى : ما عصاه قهراً عنه ، وإنما عصاه بما أودع فيه من القدرة على أن يطيع وأن يعصى .

﴿ ثمَّ اجْتَبَاهُ ربُّه فَتَابَ عَلَيْهِ وهَدَى ﴾ (٢) .

يعنى : بقى مصطفى ، وفترة الاصطفاء هى الفترة الثانية ، ولم تحدث منه فيها معصية .

* * *

لا تعارض فى العقيـــدة :

وما دامت المسألة هذه تقول : يامن تقول : إنك مجبور نرد عليك بأشياء كثيرة جداً :

ما دمت مجبوراً على فعل فلا معنى لإرسال الرسل . . والفرق بين العاقل والمجنون والطفل والكبير لا لزوم له كذلك . . وإذا نفينا اللوم عن العاصى لأنه مجبور ، ثم رتبنا على المعصية العقاب ، فهذا عين الظلم ، والله تعالى متصف بالعدل .

---

(١) سورة طه آية ١٢١

(٢) سورة طه ، آية : ١٢٢ .

أما نصوص القرآن ففيها قوله تعالى :

﴿ لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (١) .

إذن هو الذى شاء ذلك . نقول : صحيح هو الذى شاء ذلك ، ولكن لم يشأه مشيئة شرعية ، وإنما شاءه مشيئة كونية ، بأن يخلقه صالحاً لهذا وصالحاً لهذا ، بدليل أنه قال : من يعصى فليتق منى توبة ، ويتوب إلى ويرجع .

إذن لو أراد أن يخلقه على شكل واحد لما عز ذلك عليه . . فالذى كفر لم يكفر قهراً عن الله ، لأن الله أعطاه الصلاحية لأن يؤمن ولأن يكفر ، ولأن يطيع ولأن يعصى .

فإذا كان الله قد صمم الخلق على شكلين وعلى اتجاهين ، أفيكون اتجاه كل شكل إلى أى اتجاه من الاتجاهين قهراً عن الله ؟

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يغفر لمن يَشَاءُ ويُعَذب مَنْ يَشَاءُ ﴾ (٢) .

متفق تماماً مع صفة العدل ، ولا تعارض مطلقاً . . وما ظاهره التعارض يجب أن نعمل فيه عقولنا لنصل إلى الجامع والالتقاء .

تلك آية مجملة ، والمجمل دائماً يحمل على المفصل ، فليس معنى الآية أن يقول الله لهؤلاء أنتم مهديون ، ولهؤلاء أنتم ضالون ، هكذا بلا مقياس ولا ميزان ، بل إذا أردنا أن نفهم يجب علينا أن نتبع الآيات المقيدة منها

﴿ إنَّ اللهَ لا يَهْدِى القَوْمَ الظَّالِمِين ﴾ (٣) .

يعنى : سبق منهم ظلم فلم يتعرضوا لهداية الله .

﴿ وأَنَّ اللهَ لا يَهْدِى القَوْمَ الكَافِرِينَ ﴾ (٤) .

---

(١) سورة الرعد ، آية : ٣١ .
(٢) سورة آل عمران آية ١٢٩ .
(٣) سورة الأحقاف ، آية : ١٠ .
(٤) سورة النحل : ١٠٧ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ (١) .

إذا آمن الإنسان بالله استحق الهداية منه . . حينما تؤمن بأنه إله ، وأنه على العين والرأس ، وأوامره مطاعة ، فإنه يخفف عليك ، ويبين لك حكمتها ، وهذه هداية من القلب .

أما من لا يؤمن فإنه لا يهديه لأنه لم يؤمن ، بل ظلم ، وأشرك به غيره .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّار ﴾ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٢) .

وهناك آيات أخرى فى القرآن تثبت أن هدى القوم الكافرين ، وهى قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾(٣) .

إذن الهداية لها معنيان :

١ — هداية بمعنى الدلالة على الطريق الموصل إلى الخير .

٢ — هداية بمعنى التوصيل والتمكين بالفعل .

فالهداية بمعنى الدلالة على الطريق الموصل إلى الخير بذلها لكل الناس ، مؤمنهم وكافرهم ، فالذى صدق أنه إله ، وذهب إليه ليستمع منه ، مكن الهداية من قلبه ، ويسر عليه العبادة والطاعة ، وإذاقة حلاوة أسرارها ، .

ولكى نفهم المعنى بوضوح نفرض أننا نسير فى طريق لا نعرفه ، فوجدنا إنساناً واقفاً ، فسألناه : إلى أين يؤدى هذا الطريق ؟ فقال لنا : هذا الطريق يؤدى إلى كذا وكذا . . دلنا بالعقل . . نقول له : جزاك الله خيراً ، صدقناك . ومشينا على الطريق .

---

(١) سورة الزمر ، آية : ٣ .
(٢) سورة التوبة ، آية : ٢٤ .
(٣) سوره فصلت ، آية : ١٧ .

وبعد أن أردنا الاتجاه على الطريق الذى دلنا عليه قال لنا : ارجعوا ، هذا الطريق فيه مكان شكله كذا ، خذوا حذركم ، واذهبوا من المكان الفلانى .

زودنى بالنصح لأنى استمعت إلى دلالته الأولى . لكنى لو قلت له : إنك لا تعرف شيئاً ، لقد جئت من هنا قبل ذلك ، لقال لى : اذهب كما تريد.

فكأن الدلالة مرة تدل على الطريق ، ومرة تدل على التمكن من الطريق .

فإذا رأيت هداية من الله مثبتة ، وهداية منفية ، فاعلم أن المثبتة هى هداية الدلالة للكل ، والمنفية هداية التمكن ، لأن الإنسان هنا لم يؤمن بأنه إله ، ولم يستمع منه ما يريد . . فهذا لا يهديه الله ، بل يضله ، ويجعل على قلبه ختماً ، فما بداخله لا يخرج ، وما بخارجه لا يدخل .

هذا بالنسبة لله تعالى :﴿ فَأَمَّا ثَمود فَهديْنَاهمْ فاسْتَحبُّوا العَمَى علَى الهُدى ﴾. ثم يقول :﴿ لا يهْدِى القَوْم الكافِرِين ﴾ ، أى : لا يمكن الهداية من قلوبهم ، ولا ييسر لهم فعل العبادة ، لأنه ما دام قد كفر به ، فلا ييسر له أى شىء .

وفى الرسول صلى الله عليه وسلم يقول له الله تعالى :

﴿ إنك لا تَهْدِى منْ أَحْبَبْتَ ﴾ (١) .

وفى آية أخرى يقول :

﴿ وإنك لَتَهْدِى إلَى صِرَاطٍ مسْتَقِيم ﴾ (٢) .

كيف تهدى . . ولا تهدى ؟

فإذا كان الكلام من عند الله فإننا نأخذ الهداية هنا مثلما أخذناها

(١) سورة القصص ، الآية : ٥٦ .

(٢) سورة الشورى ، آية : ٥٢ .

هناك . . إذن أنت لا تمكن الهداية من القلوب ، لأن هذا عمل الله . . إنما أنت تدل فقط . فقوله تعالى :

﴿ إنك لا تَهْدِى منْ أَحْبَبْت ﴾ .

أى لا تمكن الهداية من قلب من أحببت ، وإنما تبلغ المنهج والطريق ، وبعد ذلك الذى يهدى هو الله . .

إذن قوله تعالى :﴿ يغْفِرُ لمنْ يشَاءُ ويعذِّب من يشَاءُ ﴾ ليست على إطلاقها ، بل هى مقيدة بآيات أُخرى . . والله لا يهدى القوم الظالمين . . الفاسقين . . الكافرين . فالظلم سبق منهم أولا . والفسق منهم أولا . . والكفر سبق منهم أولا .

* * *

القــدرية والمعتزلة :

ونقول للقدرى : ماذا تقول ياقدرى ؟ فيقول : الأمر أنف [بضم الهمزة والنون] . أى : بكر . . كالبستان الذى لم يدنسه رجل ، ولم يقطف منه شىء . يعنى : يالذى تعمله هو الذى يسجل عليك ، وهو الذى يعرفه ربنا فيما بعد . . حتى أنهم لم يقولوا : إن الإنسان يخلق فعل نفسه .

قالوا : إن الله لا يعرف ماذا ستفعله . ربنا لا يعلم قديماً ما ستفعله أنت . وهذه هى التى زادتهم عن المعتزله ، فالمعتزلة قالوا : إن الإنسان يخلق أفعال نفسه الاختيارية .

يعنى أن القدرية ليس عندهم شىء اسمه علم أزلى قديم . . وأخذوا يبحثون فى القرآن ليجدوا آيات تعينهم على ذلك يتمحكون بها .

قالوا فى قوله تعالى :

﴿ وما جعلْناَ القبْلَة التى كُنْتَ علَيْها إلَّا لنعْلَم مَنْ يتَّبع الرَّسولَ ممَّن ينْقَلِبُ علَى عقبيْهِ ﴾ (١) .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ١٤٣ .

فالله حول القبلة ليعلم . . وفى قوله تعالى :

﴿ لِيَعْلَمَ أَىُّ الحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾ (١) .

فكل آية فيها لام التعليل مسندة إلى الحق سبحانه وتعالى يستشهدون بها ، ومعنى كلامهم أن الحق سبحانه قال : أنا وجهتك إلى بيت المقدس ، وسأعيدك إلى الكعبة ، لأعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه .

فمن أطاعنى وسلم الأمر للمشرع فأهلا وسهلا ، ومن خالف فقد علمنا أنه مخالف لنا فى الاتجاه .

إذن لو لم يوجه الله رسوله إلى الكعبة لما علم . . فكأن الله مستأنف بحدوث الأشياء . . وهذا هو أقوى دليل من أدلتهم .

نقول : فرق بين نوعين من العلم : نوع من العلم للإخبار ، ونوع من العلم للاختبار . . كيف ذلك ؟

نفرض أن أستاذاً فى فصل فيه خمسون طالباً ، وقال لك عميد الكلية : كيف حال طلبتك ؟ فتقول له : والله أنا أستطيع أن أحدد لك الآن من ينجح ومن يرسب ، بل أستطيع أن أحدد لك ترتيب الناجحين . وهذا دليل على أنه يعرفهم جيداً .

فلو أن العميد قال للأستاذ : أعلن النتيجة على هذا الأساس ، أساس علمك ، فإن علمه حينئذ علم إخبارى ، من جهة واحدة . . ومن الممكن أن طالباً يقول له : صحيح ، أنت كونت رأيك عنى فى أول العام ، إنما أنا فى النصف الأخير من السنة اجتهدت ، وأحضرت مدرسين ، وعملت ، فلو امتحنتنى نجحت . فتقول له : نمتحنك . . وعندما تمتحنه تكون النتيجة هى هى .

ولو كانت النتيجة بقيت على الإخبار لكان فيها مطعن ، ولم يكن فيها حجة ولا شىء من إقرار الشخص على نفسه . إذن ستحولها بالفعل .

فلو قال الله تعالى : لو كنت حولت القبلة كان فلان وفلان وفلان قالوا كذا . .

---

(١) سورة الكهف ، آية : ١٢ .

وتركتهم يقولون بالفعل ، فهذا علم الإخبار . . ولكن لما حولها بالفعل وقالوا فهذا علم الاختيار .

وعلم الإخبار ليس حجة ، وإنما علم الاختبار هو الحجة ، لأن الفرد صار حاكما فيه على نفسه .

إذن فقد انهدم الدليل الذى تمسك به القدرية .

ونقول : إذا وجدت طرفين وكل طرف متمسك . . فاعرف أن هذا مخطئ فى موضع ، وهذا مخطئ فى موضع . وخصوصاً إذا كانوا قد صنعوا القرآن أطرافاً ، وليسوا هم الأطراف .

نقول : هذه هى الفجوة بين كلام ربنا . . فجوة واسعة بعد ذلك . . كان ولابد أن نعمل شيئاً اسمه الالتقاء . . وهو أن أناساً ينزلون هؤلاء عن رأيهم قليلا ، وأناس ينزلون هؤلاء عن رأيهم قليلا . نقول : أنت مخطئ ومتطرف فى الموضع الفلانى فانزل من هذه الناحية وأنت كذلك مخطئ ومتطرف فى الموضع الفلانى ، فانزل من هذه الناحية ، لكى تلتقوا فى منتصف الطريق .

وذلك بحيث إذا جئت للذى يقول : إن الإنسان خالق أفعال نفسه ، نجده لا ينفى قدرة الله فى الخلق ، وبذلك يتحقق العدل .

ونأتى لمن يقول : أنا مجبور . ونقول له : لا ، كلمة العدل تضيع . . سنقول لك أيضاً : أنت فيك جبرية قليلة ، إنما لا تضيع صفة العدل .

إذن لا أضيع صفة القدرة هنا ، ولا أضيع صفة العدل هنا . بل أجمع عدلين بين قدرة .

ثم نقول : الموضع الذى لم ينتبه له أحد فى النقاش هو أنك يا معتزلى عقلك كبير ، وقرأت الفلسفة ، وهضمتها ، وخدمت الإسلام ، ووثقت بعقلك ، وأنا أريد أن أفهم كيف أطلقت أن الإنسان يخلق أفعال نفسه ؟ فالتعبير غير صحيح ، ليس صحيح عقلا أن الإنسان يخلق أفعال نفسه .

ما هو الفعــل أولا ؟

الفعل معناه : توجيه طاقة لتنشىء حدثاً لم يكن موجوداً . . إذن الذى يحتاج إليه وجود الفعل ؟

طاقة . . وعقل يخطط لتوجيه الطاقة . . وموضوع للفعل . . زمان . . مكان . . مادة .

بالله ما دمت تقول : إنك خالق الفعل ، فقل لنا : أنت خالق أى واحدة من هذه العناصر اللازمة للفعل .

أنت لم تخلق العقل الذى خطط ، ولا الطاقة التى فعلت ، ولا المنفعل لفعلك ، فكيف تقول : إنك خلقت فعلك ؟

قلنا مرة : لنفرض أن واحداً جالس ، ويريد أن يقوم ، فإذا خطر فى باله أن يقوم ، فأنا أسأل سؤالا واحداً : ما هى العضلات أو الجوارح أو الأجزاء التى يجب أن تتحرك لتتم عملية القيام ؟

أريد أن أرفع يدى ، فما هى العضلات والأعصاب التى تجعلنى أقوم بهذه العملية ؟

لا أعرف . . إنما بمجرد أن أريد القيام أقوم أو أرفع يدى أرفعها .

إذن فالمسألة يجب أن ننظر إليها نظرة أدق ، فالمجازفة فى قولهم : إن الإنسان خلق فعل نفسه .

لأنك أنت لم تعمل شيئاً أبداً . . بدليل أن الله تعالى يستطيع أن يسلب منك العقل فلا يخطط ، وتريد أن تفعل الفعل فيصيبه بتعطل أو شلل مثلا ، وبعد ذلك يأتى إلى الذى سينفعل فلا ينفعل .

إذن هناك عناصر لخلق الفعل ليست منك . . فماذا لك أنت ؟ ليس لك إلا منطقة الفكر فقط ، وهى أن تقارن بين البديلات ، ثم توجه الطاقة ، وترجح فعلا على فعل .

وترجيح فعل على فعل لايقال فيه إنك فعلت ، وإنما رجحت توجيه الطاقة إلى فعل دون غيره . . إذن أنت لم تخلق الفعل ، وإنما وجهت . إذن الإنسان فى التكليف ليس له خلق فعل نفسه فى الطاعة أو المعصية ، وإنما وجه الطاقة

المخلوقة لله لأن تفعل ، فاستجاب له ، وهى لا تعصى فى الأولى ، ولا تعصى فى الثانية ، إذن فأنت موجه فقط ، وثوابك وعقابك على التوجيه لا على الفعل

ومن هنا قال أهل السنة بالكسب . ولكن القول بالكسب فيه شىء . . ما معنى الكسب ؟ الكسب أن تكسب شيئاً . الكسب فعل من الأفعال . إذن فالدقة ألا تقول كسب ولا خلق ، وإنما هو توجيه الطاقة إلى الفعل ، وثوابى وعقابى على هذا التوجيه .

وإذا وجهت الطاقة الصالحة للفعل وعدمه ، فأى فعل يحدث منك لا يكون قهراً عن الله ، لأنه خلق الطاقة صالحة لهذا ولهذا .

بقى شىء . . عندما يقول القرآن :

﴿ ولا تَقُولن لشَىءٍ إنِّى فاعلٌ ذٰلكَ غدًا * إلَّا أنْ يشاءَ اللهُ ﴾ (١) .

يقولون : لا تقل هذه الكلمة أبداً . . لا تقل : أفعل ذلك غداً . لأن « أفعل » يعنى أن عندك عناصر ، وأنت لا تملك عنصراً منها . . فقولك « أفعل » يريد فاعلا ومفعولا ، وزماناً ومكاناً ، وسبباً ، وطاقة ، وأنت لا تملك أيا من هذه ، فوجب عليك أن تردها إلى مالكها ، أى :

﴿ إلَّا أنْ يشَاءَ اللهُ ﴾ .

وعندئذ تخرج من عقدة الكذب .

فالإشكال الذى قابل هؤلاء حل ، ولم نعمل معصية غصباً عن الله ، ولم يكفر الكافر قهراً عن الله ، بل لأنه خلقه صالحاً لأن يكفر وأن يؤمن .

ولذلك فالقرآن حينما تعرض لهذه المسألة فى شخص إبليس قال :

﴿ قال فَبعزتكَ لأُغْوينَّهُم أَجْمعين * إلَّا عبادكَ مِنْهُم المخْلَصِين ﴾(٢)

الذى تريده أنت مخلصاً لا أقدر عليه . إن قوتى ليست أمام قوتك ، بل قوتى أمام قوة المكلفين . أما أمام قوتك فلا . فأنت استخلصت ناساً

---

(١) سورة الكهف آيتا : ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) سورة ص ، آيتا : ٨٢ ، ٨٣ .

وقلت : إنهم مخلصون لا يعصون ، فأنا لا أقدر عليهم ، لأن قوتى لا تقف أمام قوتك بل تقابل قوة المكلفين .

ولذلك حين أقسم إبليس قال : ﴿ فبعزتك ﴾ .جاء بالصفة المناسبة وهى العزة عن جميع الخلق . من يؤمن يؤمن ، ومن يكفر يكفر ، لست محتاجاً إلى أحد ، لا إيمانهم ولا كفرهم يضرنى ، فكأن عزة الله من خلقه هى التى تمكن إبليس من أن يغوى ، وإلا فإذا كان الله يريدنا مخلصين ، فلا يقدر علينا إبليس .

* * *

إشــكال آخــر :

بقى إشكال آخر ، فالذين يتعصبون لصفة القدرة ، والذين يتعصبون لصفة العدل ، هذا متطرف ، وذاك متطرف ، والصفات لابد أن تتعايش كما يقولون تعايشاً سلمياً .

هذا لابد أن يتنازل عن فكره فى ناحية ، وهذا لابد أن يتنازل عن فكره فى ناحية ، ويتأدبوا فى إطلاق الألفاظ .

فالذين يقولون : الإنسان خالق أفعال نفسه يقولون : المعتزلة قالوا هكذا . . لكن عندما يستدل ، فإنه يستدل بدليل فيه تهافت ، يأتى بالآية فى غير محلها ، يأتى بالآية فى غير محل الاستشهاد .

عندما نقول : الله خلقنا وخلق ما نعمل ، فالمعنى : أنه خلقنا وخلق فعلنا . إذن عندما يقول قائل : إن الإنسان خلق فعل نفسه ، فهذا القائل كذاب ، فبعد هذا التفصيل أنا لم أخلق الفعل .

فيرد علينا القائل بهذا الرأى بآية من القرآن هى قوله تعالى :

﴿ قَالَ أَتَعْبُدونَ مَا تَنْحِتُونَ * واللهُ خَلَقَكُمْ ومَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

فنقول له : الآية واردة لا على الفعل ، بل على ذوات الفعل . واردة على المادة التى يعمل فيها الإنسان بالنحت . فهم يعبدون ما ينحتون والله خلقنا

---

(١) سورة الصافات ، آيتا : ٩٥ ، ٩٦ .

وخلق المادة التى تنحتها . ما نحتموه إلهاً أنا خالقه . والكلام هنا صحيح بالدليل الصحيح هو قوله تعالى :

﴿ اللهُ خَالِقُ كل شيء ﴾ (١)

هذا هو الدليل ، خالق كل شيء ، يعنى موجده ، فماذا بعد ذلك للعبد ؟ له كسب فقط ، لا خلق للعقل ، بل توجيه فقط للطاقة ، أن تفعل ، والطاقات كلها مخلوقة لله ، لا فعل لأحد فيها .

* * *

طويت الصحف ، وجفت الأقـــلام :

بقى إشكال بسيط ، فهم يقولون : إن القلم قد جف ، والشقى شقى ، والسعيد سعيد ، والقدرى لا يقول هذا ، لأنه يقول : إن الله لا علم له بهذا إلا عندما يحدث ، فلا قلم جف ، ولن يجف .

نقول له : هيا نرجع إلى بحثنا الأول ، ولكن سنزيد شيئاً بسيطاً . الرسول صلى الله عليه وسلم عندما سئل عن الإيمان ، ماذا قال فى الإيمان ؟ قال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره » .

كأن منطقة القدر من منطقة الإيمان ، والإيمان دائماً يكون بالغيبيات : فلا أقول : أنا مؤمن بأن المروحة تعمل ، لأن هذا أمر محس ، ومنطقة الإيمان هى الأمور الغيبية ، إذن فالقضاء والقدر إن كنت أنا حللته فى جلسة ، فقد نقلته إلى أمر محس ومعقول فأين سره ؟ أين سر القضاء والقدر إذن ؟

ونقول : هل القدر متعلقة فقط فى أفعال المكلفين ؟ أم فى المنطقة التى فيها الجماد وفيها النبات وفيها الحيوان ، وفيها ما يصيب الإنسان وما يقع عليه وما يقع فيه ؟

إذن فالقدر سره فيما يقع على الإنسان ، ساعة ما يقع على شيء وليس

---

(١) سورة الزمر ، آية : ٦٢ .

فى اختيارى . أقول حينئذ : هذا قدر على ، ولله فيه حكمة . فعل يقع على . . قلبي يقف ، معدتى تتعب . . قدر ولله فيه حكمة . . إذن يظل سر القدر دائماً فى الأعمال دون الفكر التكليفى . . هناك يبقى لله فى قدره سر .

* * *

قدر وحكم . . وسر القضـــاء والقـــدر :

والأمور التى يقدرها الله عليك غير الأمور التى يطلبها منك . . إذن فلله تقدير يقابله القضاء . . حكم بكذا ، معناها غير معنى قدر . فرق بين قدر وحكم .

فالتقدير نحن نستعمله مثلا حينما يقول وزير الزراعة : وتقدر محصولات القطن هذا العام بكذا . . فهو يقدر بناء على معلومات عنده . ثم يأتى الواقع ، وهل يوافق التقدير أو لا يوافق . . إن كانت المعلومات دقيقة يصح أن تكون قريبة ، وإن حصلت أشياء لم تكن فى حسبانه كافة لا يعرف منها اختل التقدير . . إذن هذا هو الذى جعل التقدير يختل .

لكن الخالق سبحانه وتعالى عالم بكل شىء ، فإذا قدر الحق شيئاً يجىء فى المستقبل فسيجرى على وفق ما قدر تماماً .

وحين يقدر الله تعالى أن فلاناً سيحصل منه كذا وكذا ، أفيكون هذا التقدير منه سبحانه وتعالى ملزماً لك ؟ أم قدر لأنه علم أنك تفعل ؟

بل علم أنك ستفعل . . . إذن فى منطقة التفكير تكون التكليفات التى نسميها طاعة ومعصية ، وسنحاسب عليها .

فحين يقدر الله أولا على بأنى طائع ، وعلى غيرى بأنه عاص مثلا ، فمعنى هذا أنه لم يقدر لأنفذ ، ولكنه قدر لأنه علم أنى سأختار بمحض اختيارى هذا الطريق ، ولا يقع خلل يغير ما قدر الله أبداً ، بخلاف تقدير البشر ، وتبقى عملية التقدير والتكليف تقديرا لوظيفة العلم ، لأنه علم ما يكون منك . . والتقدير فى غير منطقة التكليف التى هى الأمور التى يشترك فيها

الإنسان مع الحيوان والجماد والنبات فعل منه وقدر أنه يحصل ، إلا أن له حكمة فيه .

والقرآن لم يترك هذه القضية ، بل جاء بقضايا عامة ، فقال تعالى :

﴿ وعسى أَنْ تكرهُوا شيئًا وهُو خيرٌ لكُم وعسى أَنْ تحبُّوا شيئًا وهو شر لكم ﴾ (١) .

إذن معناها : أن الله قدراً ، فما دام يجرى عليك أمراً لا إرادة لك فيه ، فافهم أن له فيه حكمة ، لكن أنت تقيس المسائل بعقليتك الظاهرة ، وهو يعطى المسائل على حكمته هو .

﴿ فَعَسَى أَن تكْرَهُوا شَيْئًا ويجْعل اللهُ فيه خيْرًا كَثيرًا ﴾ (٢) .

فحكمى على الأشياء قد تغيب عنى حكمته .

* * *

وسى والخضر وسر القــدر :

وحينما عرض القرآن لهذه المسألة جاء بها فى سورة الكهف ، ومن العجيب أن الأشياء التى وردت فى سورة الكهف كلها عقد .

جاء فى سورة الكهف عن موسى والخضر ، موسى رسول ، والخضر عبد آتاه الله رحمة من عنده ، وعلمه من لدنه علماً ، لكى يفهمك كيف يأتى القدر ، ما الذى جعل العبد الصالح يخرق السفينة ؟

هو علمه بسر القدر ، أعلمه الله بسر القدر ، قال له : إن لم تخرقها ستضيع السفينة . وموسى ليس عنده هذا العلم ، فأخذها على استقبال للقدر ، كيف تخرق السفينة وهؤلاء مساكين يعملون فى البحر ؟

إذن فموسى قارن بين سفينة صالحة وسفينة مخروقة ، هذا هو المنطق الظاهرى ، لو عرف موسى ما عرفه الخضر ، أكان يخرقها هو بنفسه

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٢١٦ .

(٢) سورة النساء ، آية : ١٩ .

أم لا ؟ ؟ كان يخرقها طبعاً . لأن الخضر قارن بين سفينته ولا سفينة . أما موسى فقارن بين سفينة سليمة وسفينة مخروقة .

بقى أن نؤمن بسر قدر الله فى غير مناطات التكليف ، وأن نرجع قدر الله فى مناطات التكليف على أنه علم أزلا ما يفعله عبده ، وأن علمه غير ملزم لعبده بالفعل ، فهو علم انكشاف وشمول .

وكانت آية القبلة من أسرار القدر . . وذلك أننا تحولنا إلى بيت المقدس ، وصلينا إليه مرة ، ثم اشتاق النبى صلى الله عليه وسلم إلى أن يتحول فقال له الله سبحانه وتعالى :

﴿ قَدْ نَرى تَقَلُّب وجْهكَ فى السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاها ﴾(١)

وبعد ذلك قال له : لاحظ أننا عندما نوليك القبلة .

﴿سيقُول السُّفهاءُ من النَّاسِ ما ولَّاهم عنْ قبْلتهُم الَّتى كانُوا عليْها ﴾ (٢) .

هم لم يقولوا بعد ، ولكن من غبائهم أنهم قالوا : ولو كانوا أذكياء لخاطوا أفواههم وقالوا : هذا قرآنكم يخبر أننا سنقول ، ولن نقول .

وأبو لهب . . . أحد الكفار الذين عارضوا الرسول ، نزل فيه سورة المسد فهل كان أبولهب عاجزاً عن أن يشهد أن لا إله إلا الله ولوكذباً حتى يقول : إن القرآن باطل ؟ ولكنه لم يفعل .

وذلك لأن الذى أخبرنا أولا بهذا يعلم ما يختاره أبو لهب .

* * *

(١) سورة البقرة ، آية : ١٤٤ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ١٤٢ .

وجـــود اللـــه

بين الوجدان والفطرة والعقل والحس

الإنسان ووسائل الإدراك :

وجود الحق سبحانه وتعالى قضية وجدانية أولا ، تشهد بها الفطرة ، وثانيا إنها قضية عقلية ينتهى إليها الفكر ، وثالثاً هى قضية مشهدية أصلها المشهد والحس .

والإنسان له وسائل إدراك بالعلم الخارجى ، كالسمع والبصر والأنف والذوق واللمس ، لينتقل له العالم الخارجى عن نفسه . . وفيه ملكات يطل منها على ذات نفسه ووجدانه ، فله منافذ إلى الخارج ، وله منافذ إلى الداخل .

فالمنافذ التى إلى الخارج نعرفها حسياً ، والمنافذ التى إلى الداخل نسميها وجدانية ، أى يجدها الإنسان فى نفسه من غير أن يعرف الآلة التى دلت عليها .

فمثلا فى المشاهد الحسية يرى الإنسان الأشكال ، ويرى الألوان ، ويسمع الأصوات ، ويلمس الأشياء ، ويذوق فيجد الحلو والحامض ، ويشم الروائح ، فيجد الرائحة الجميلة ، والرائحة المتأنف منها ، كل ذلك ليصله بالعالم الخارجى .

ولكنه مع ذلك له إدراكات أخرى ليست عن طريق هذه الوسائل . . فمثلا يشعر أنه جوعان ، فبأى شىء يشعر بأنه جوعان ؟ أبعينه ، أم بأنفه ، أم بلمسه ؟ لا بشىء من ذلك ، إلا أنه يدرك الجوع .

إذن فهناك وسائل الإدراك داخل النفس غير وسائل إدراك خارجها ، وأنت تدرك أنك تحب فلاناً ، وتبغض فلاناً ، فبأى شىء أدركت هذا الحب ، وبأى شىء أدركت ذلك البغض ؟

إذن فوجود الإدراكات يدل على أن لها وسائل ، إلا أنها لا تقع فى ضمن إطار الحواس الظاهرة .

ولذلك حينما تكلم العلماء عن الحواس عبروا عنها تعبيراً احتياطياً فقالوا : الحواس الخمس ظاهرة . فكأن هناك حواس أخرى غير ظاهرة تربط الإنسان بعالمه الداخلى ، لأنه ليس من المعقول أن يكون للإنسان حواس تربطه بالعالم الخارجى ، ثم يترك ما بداخله فلا يدركه ، بل الأولى أن يدرك ما بداخله أولا .

* * *

الفطرة ووجود الله :

إذن ما دامت هناك هذه الوسائل الإدراكية ، فالفطرة تشهد بذاتها بوجود الله . . وليس بهذه الدقة « الله » لا بل بوجود قوة وراء هذا الكون . أما كون هذه القوة « الله » فهذه لا يدركها العقل ، ولا تتأتى إلا بالسمع ، ولابد أن أحداً قال لنا : إن هذه القوة اسمها الله ، لأن الأسماء لا تدرك بالعقل . ما هذه القوة إذن ؟ لا أعرف عنها شيئاً ، لأن هذا ليس من بحث العقل .

فحينما يأتى الفلاسفة قديماً ، وخاصة الفلسفة اليونانية التى شغلت بهذه المسألة ليبحثوا فى شىء اسمه « ما وراء الطبيعة » أو « الميتافيزيقا » فمن الذى قال لهم : إن وراء المادة شىء يجب أن يبحثوا عنه ؟ من أين أدركوا أن وراء المادة ما يجب البحث عنه ؟

لا يعنينا أنهم وفقوا فى البحث ووصلوا أو لم يوفقوا ، إنما يعنينا الدافع إلى البحث فيما وراء الطبيعة ، مجرد الدافع للبحث فيما وراء المادة .

إذن ففطرتهم ووجدانهم يقر ويعلم أن هناك شيئاً وراء الكون ، وليس من الممكن أن يكون هذا الكون لحاله . . فلابد أن يكون هناك شىء خلف الطبيعة ، فبحثوا ووجهوا فكرهم إلى ما وراء الطبيعة . . وإلا لو لم توجد هذه القضية فالأمور العدمية المحضة ليست محل شغل للعقل ولا للبحث .

وأيضاً العلماء الذين وضعوا الأدله على وجود الله . . وضعوها فى أى سن عقلى لهم ؟ لاشك أنهم وضعوها فى السن العقلى العالى . . علماء الكلام نجدهم كلهم زاولوا هذه المهنة بعد العشرين، يعنى فى العشرينات، ثم الثلاثينات، فعلى أى شيء كانوا يعبدون الله سبحانه وتعالى قبل أن يبحثوا فى إيجاد الدليل ؟

إذن فبحثهم عن الدليل على وجود الله شهادة فطرية على أنهم آمنوا بأن هناك إلهاً موجوداً يريدون أن يستدلوا عليه .

إذن الذى دعا العقل للبحث عن الأدلة على وجود الله إنما هو الإيمان الوجدانى الفطرى المركوز فى النفس . . وأن العالم لا يمكن أبداً إلا أن يكون وراءه قوى ، فلنبحث فى هذه القـــوى .

* * *

ســـبب الجـــدل حول وجود الله :

ولو أن الناس اكتفوا بهذا القدر من عقولهم ومن فطرهم ومن وجدانهم لكفاهم ذلك ، إلا أن الذى أتعبهم أنهم أدخلوا شيئاً فى البحث ليس منه ،

فما الذى أدخلوه فى البحث ؟

العقل حينما ألحت عليه الفطرة فى وجود إله ، ظل يبحث فى الكون ليستنبط دليلا على وجود ذلك الإلـــه .

ولو لم يكن مقتنعاً بأن هناك قوة ما كان أتعب نفسه أبداً فى أن يبذل الجهد فى إيجاد أدلة لتدل على الله . . كان يكفى العقل هذا المقدار ، وبعد ذلك يتلقى المعلومات عن هذه القوة من نفس القوة .

لقد قلنا : إن الذى أتعب الفلاسفة والمفكرين جميعاً أنهم خلطوا بين شيء اسمه التعقل ، وشيء اسمه التصور ، فأدخلوا التصور على ميدان التعقل ، وخلطوا التعقل فى ميدان التصور .

كيف ذلك ؟

التعقل هو أن يحكم العقل بوجود قوة ما وراء ذلك الكون . هذا من قدر العقل . إنما ليس المفروض فى العقل أن يقول لى : ما اسم هذه القوة ؟ ما شكلها ؟ ما صفتها ؟ ما مطلوبها ؟ ماذا تعمل لمن يطيعها ؟

العقل لا يقول عن ذلك . . وقلنا : إننا إذا أغلقنا الغرفة ، ثم دق الجرس فكلنا نستوى جميعاً فى تعقل أن بالباب طارقا . . هذا هو التعقل . فإذا اكتفينا بهذا القدر لم يحصل خلاف بيننا .

فإذا بدأنا نقول : من بالباب ؟ رجل ، امرأة ، صغير ، كبير ، أبيض أسمر ، بشير ، نذير ، فقد بدأنا نختلف ، لأن هذه ليست عملية العقل ، هذا تصور .

إذن فالذى أتعب الفلاسفة أنهم أرادوا أن يتصوروا الله ، والتصور ليس محله العقل ، لماذا ؟ لأنك لا تتصور العدميات إلا على إلف ما رأيت من محسوسات بدليل أن الشىء الذى يغيب عن الناس ، وبعد ذلك نريد أن نعطيهم صورة عنه ، نقول لهم : مثل الشىء كذا وكذا . . ننقله إلى صورة معلومة .

فلو أن الفلاسفة اكتفوا بقدر التعقل لانتهت المسألة ، ثم بعد ذلك يتركون منطقة التصور للبلاغ ، فالقوة تعلن عن نفسها وتقول : أنا اسمى الله ، وصفاتى كيت وكيت ، والذى يطيعنى أفعل له كذا ، والذى يعصينى أفعل له كذا .

وذلك هو الرد على كل إله مدعى دون الله . . فالذين عبدوا الشمس نقول لهم : وما المنهج الذى طلبته الشمس ؟ لا نجد لها منهجاً ، والذى يطيعها ماذا تصنع له ؟ والذى يعصيها ماذا تصنع له ؟ لا نجد لها منهجاً أيضاً . فالذى يبطل هذه العبادة أن ذلك المعبود لم يقل لنا عن منهجه الذى يريده منا ، فكيف نعبده إذن ؟

إذن فلابد من كون الله له الذى آمنت بأنه خالق ورازق له منهج فالشمس إذ لم تبين لى المنهج أقول : هذا كلام كذب . ولم يأت أحد ويبلغ أنه رسول من عند الشمس .

القرآن لم يأت بدليل على وجود الله :

إذن فالتعقل منطقة نشأت من طريق الوجدانيات والفطريات ، الوجدانيات الفطرية التى تكون قبل الفكر . . الوجدانية والفكر هى التى حملت العقل ليبحث عن الدليل ، فالعقل أخذ شيئاً غير سلطانه ، ولم يقف عند العقل ، ولذلك الفلاسفة قالوا : إن الإنسان يكفى أن يعتقد بوجود القوى ، وبعد ذلك هو يقدر أن يعطى للقوى .

نقول له : لا... أنت لاتقدر . فأنت لاتعرف ما هى مطلوبات القوة ، لا تعرف بم يكون رضاها ، وبم يكون سخطها وغضبها ، فدخلت الفلسفة الميتافيزيقية أو فلسفة ما وراء الطبيعة فى متاهات لم تنته فيها مدرسة إلى رأى مدرسة أخرى ، بل إن المدرسة الواحدة اختلف فلاسفتها بعضهم على بعض ، لأن البحث لا يمكن أن ينتهى إلى عمل تتفق فيه العقول .

إذن القرآن عندما جاء يعرض القضية ، لم يأت بدليل على وجود الله أبداً . وإنما جاء بكل الأدلة على بطلان الشرك بالله .

فكأن وجود الله قضية فطرية مسلمة ، وإنما الخلاف فى تعدد الآلهة ، أنا أفهم أن يقول العقول بآلهة متعددة ، لأن المظاهر الكونية الموجودة تريد قوى كثيرة ، فتقول : إله السماء ، وإله الأرض ، وإله الريح ، وإله النجوم ، أى يوزعها ، لأنها كبيرة وكثيرة ، وليس من المفروض فى العقل أن يقول : إنها حصلت بدون آلهة .

إذن فالدليل على وجود الله من ناحية القرآن لم يعرضه أبداً ، لماذا.؟ لأن هذه مسألة مسلمة ، ومسألة فطرية ، لدرجة أن الكفار الذين عارضوا الدعوة حينما يسألون السؤال المحرج :

من رب السموات والأرض ؟

من خلق السموات والأرض ؟

من خلقكم ؟

يقولون : الله .

حتى الذى يقول : الله غير موجود ، يعملها قضية . . نقول له : متى جاء فى ذهنك الله الذى تنفيه ؟ الأمور العدمية المحضة لا تخطر على البال لتنفى ، إذن فلابد أن يكون السابق أننا آمنا بوجود الله ، إلا أنه لما كان غائباً عنا ، بدأنا نقول : إنه غير موجود .

أما عن نشأة هذ االلفظ فى اللغة العربية وفى غيرها ، فإن الألفاظ لاتوضع فى اللغة إلا لمعان فى الذهن ، فاللفظ فى اللغة لايمكن أن يوجد لمعنى غير وارد فى الذهن : المعنى يوجد أولا ، ثم يوجد له اللفظ .

فوجود هذا اللفظ فى قواميس اللغة ، وفى استعمالات الناس ، يدل على أن له مدلولا ، وكون النفى يجىء بعده هذا موضوع آخر .

ولذلك يقال دائماً : المثبت مقدم على النافى ، لأن النافى إنما ينفى وجود شىء ، فكأن الوجود أسبق ، والوجود ماجاء فى ألفاظ اللغة إلا لأنه له وجود ، إذن فهى مرحلة وجدانية ، اتضحت الفكرة لتأتى بضرورة عقلية ، وبعد ذلك الضرورة الفعلية حينما تصلنى بهذه القوة ، آخذ من القوة المعلومات ، وأجد المسألة حسية ارتدت إلى أقوى الأدلة .

* * *

أمر مشاهدة بالنسبة لآدم :

وعندما يقول القرآن : إن الله خلق آدم ، وآدم شخص ليست له طفولة ، يعنى لم يكن صغيراً ثم كبر ، بل التفت فوجد نفسه رجلا ، ووجد ملائكة تسجد له ، يعنى من عدم ليس له أمس .

إذن الصورة كانت مشهدية بالنسبة لآدم ، وكان المفروض فى آدم أن ينقل هذه الصورة المشهدية إلى ذريته ، وذريته تنقلها إلى ذريتها ، إذن فلم ينشأ ذلك اللفظ الذى يدل على الله فى جميع اللغات إلا لأن معناه كان موجوداً عند من نطق به أولا .

ولذلك حين يتعرض القرآن لأشياء ليس لها وجود ذهنى عندنا ، لكى نضع لها معانى ، يعطى صورة تقريبية فقط .

فمثلا الجنة ونعيمها شىء غير الذى فى الدنيا ، لكن الله حين يريد أن يعرفنا بالجنة فمن أين يأتى بألفاظ ؟

ألفاظ لغتنا نحن وضعناها لمعان فى أذهاننا ، وهو سبحانه يقول إن فى الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فكيف تجىء الألفاظ التى تعبر عن هذا الذى فى الجنة ؟

إذن عندما يريد أن يعطينى صورة لايعطينى حقيقة الجنة ، لأنه مادامت حقيقة الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، واللغات إنما توضع لمرئيات ، والذى يخطر على قلب البشر يضعون له أسماء ، مادامت الجنة بهذا الوصف فلا توجد ألفاظ لدينا تعبر عما فى الجنة ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مَثَلُ الجَنةِ الَّتِى وُعِدَ المُتَّقُونَ ﴾ (١) .

مثل الجنة ، وليست حقيقة الجنة ، لأنه ليس عندنا الألفاظ التى يخاطبنا بها الله فيقول : فيها كذا وكذا . لأنه إذا قال : فيها كذا وكذا ، واللفظ له معنى عندى ، يكون قد خطر على قلب بشر وعرف .

إذن فالأمر العدمى المحض لايمكن يخطر على البال ، فلا بد أن يكون يكون ذلك الأمر من الحلقة الأولى فى آدم كان أمراً مشهدياً محسا بالنسبة له ، ولكن كان المفروض أن ينقله إلى ذريته ، لكن النقل كلما ابتعد عن مصدر النقل يحصل شىء اسمه « الغفلة » .

يغفل الناقل عن شىء ، والذى بعده يغفل عن شىء ، والذى بعده يغفل عن شىء ، فتنطمس المعانى ، ثم يعود الناس ليتذكروها بالمحسات .

---

(١) سورة محمد ، آية : ١٥ .

الرســـل والعهـــد الأول :

ولذلك فالرسل حين جاءوا كان واجبهم أن يمسحوا أدران الغفلة عن النفوس ، وكلما صدئت النفوس أرسل الحق رسولا .

لذلك إذا استعرضنا ما تعرض له القرآن من قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وإِذْ أَخَذَ ربُّكَ مِنْ بنى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وأَشْهَدَهُمْ علَى أَنْفُسِهِم أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بلَى ﴾ (١)

وهو ميثاق الذر . نجد القضية كما شرحها الحديث : « إن الله لما خلق آدم مسح على ظهره فأخرج ذريته جميعاً وقال لهم :

﴿ أَلَسْتُ بربكُم قالُوا بلَى ﴾ » .

إذن المسألة مشهدية . . إذن فى خلق آدم كان أمر مشهدياً ، وآدم لم يعرف الله بعقله ، بل كانت المسألة وجهاً لوجه .

ثم كان من المفروض أن ينقل ، وإنما الغفلة تأتى . ولذلك فالآية تتعرض لهذه المسألة وتقول :

﴿ قالُواْ بلى شَهدنَا . . أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ القيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هٰذا غافِلينَ ﴾ (١) .

هذه واحدة :

﴿ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِم أَفَتُهْلِكُنا بمَا فَعَل المبْطِلُونَ ﴾ (٢)

أصبحت العلة علتان : غفلة ، ووراثة .

أن تقولوا إنا كنا عن هذا غافلين : ﴿و تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل﴾ .

---

(١) سورة الأعراف ، آية : ١٧٢ .
(٢) سورة الأعراف ، آية : ١٧٣ .

لكن الوراثة إذا سلسناها ستنتهى إلى أن الذى لم يقل هذا هو آدم ، لأنه عرف المشهد الأصلى .

إذن لابد أن تطرأ الغفلة قبل الوراثة ، الفجوة الأولى : أن تحدث الغفلة . . وبعد ذلك تنشئ الغفلة جيلا غافلا عن التعاليم ، فيأتى جيل آخر مصاب بعلتين : غفلة ، وتقليد آبائه الموجودين .

وبالترتيب توجد الغفلة أولا ، ثم يوجد الجيل الذى يقلد ويقول :

﴿ إنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بعْدهمْ ﴾ .

فالقرآن حين يعرض هذه المسألة يعرض وجود الله على أنه أمر مسلم لايصح الاختلاف فيه ، لأن إيراد الدليل المنكر اعتراف من مورد الدليل بشبهة الإنكار . كالمريض يذهب إلى الطبيب ، فإن لم يصف له دواء يكون معنى هذا أن الصحة طيبة ، لكن إن وصف له دواء يكون دليلا على الشبهة فى المرض قائمة ، فكذلك عدم إقامة الدليل على شىء دليل على أنه أمرض الوضوح بحيث لايصح أن يوضع له دليل ، وإن وضع الدليل فإنما يوضع لشىء آخر ، لالتقليل الإله ، لكن لتكثيره .

إذن فالشبهة التى تأتى هى أن الإله يكون كثيراً ، لأن الكون يحتاج إلى سلطات واسعة ، لا يمكن لواحد أن ينهض بها ، فيمكن أن يكون لكم شبهة فى هذه . . إنما شبهة فى (لاإله) لايمكن أن تأتى أبدا .

فإن كانت هناك شبهة تكون فى أنهم آلهة ، ولذلك كان كل الكلام مع الله ﴿ أَإلهٌ مع الله ﴾.﴿أَفِى اللهِ شَكٌّ﴾. فالشبة القائمة دائماً هى أن يوجد شركاء وليس أن يستدل على وجود الله .

لكن عندما أخذت الغفلة حقها ، وهناك أناس لهم كبرياء عقل ، لاينقادون إلى قوم يدعون أنهم رسل ، بدأ أصحاب الكبرياء العقلى يستقلون بهذه المسألة ، فانتهوا إلى وجود القوة ، لكنهم وقفوا .

ماذا تريد القوة منا ؟ لم يعرفوا .

إذن فالوقفة الأولى فطرية وجدانية يجدها الإنسان فى نفسه ، والفكرة الثانية عقلية ، يعنى أن الوجدان ألح على الفكر ليضع الأدلة ويستنبطها على وجود الله .

فاذا أخذنا الأدلة ، وتلقينا تفصيل الأدلة والبيان ، نجد أنها أصبحت أمراً حسياً مشهدياً .

* * *

الله . . وقانون المسميات :

فى فلسفة الأسماء يضع البشر الأسماء للمسميات ، وهذه خاصية موجودة عندهم، كل شىء يوضع له اسم . . يضع الأب لأولاده أسماء ، والأشياء التى يخترعها الإنسان يضع لها أسماء ، إذن فللبشر إلف فى وضع الأسماء لمسمياتها ، هذه قاعدة وقانون يسير عليه البشر .

وهنا يأتى الحق سبحانه وتعالى لنا بآية تدلنا على أن الله حقيقة مسلمة ، حتى الاسم ، تحدى به الناس ، وهم الذين لهم إلف بوضع الأسماء للمسميات فقال :

﴿ ربُّ السَّمواتِ والأَرْضِ وما بيْنَهُمَا فَاعْبدهُ وَاصْطَبِرْ لِعبادتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَه سميًّا ﴾(١) .

يعنى : هل عرفت شيئاً اسمه الله ؟

أبدا . . بالاستقراء لم نجد : حتى الملاحدة والكفار لايضعون هذا الاسم على شىء أبدا من مسمياتهم .

وإذا كان ذلك التحدى جائزاً قبل أن يطلق التحدى فيمكن أن لايقال : الناس غافلون . . ولكن بعد أن أطلق التحدى هكذا : وبعد أن يقول القرآن :

﴿ هلْ تعلمُ له سميًّا ﴾ ؟

---

(١) سورة مريم ، آية : ٦٥ .

ألا ينطلق ملحد زنديق — وما أكثر المجترئين على الله — فيأتى بعد ذلك ويقول : أنا سأتحدى القرآن ، وأسمى ابنى « الله » . . ومع ذلك لم يحدث ذلك ، مع كثرة المجترئين على الله . . فلماذا ؟

هذا معنى نفسى . . ما هو المعنى النفسى ؟ حقيقة هو ينكر الله ويجترئ عليه ، لكن إذا قال الله تعالى :

﴿ هَل تَعلمُ له سَمِيًّا ﴾ ؟

فلا أحد يستطيع أن يسمى بهذا الاسم ؛ لأنه ليس عندهم حقيقة يتمسكون بها تقاوم وجود الإله ، ولهذا نجده يخاف أن يضع هذا الاسم على مسمى ، وإلا فما الذى جعل هناك ما يمنع الناس من أن يطلقوا اسم « الله » على شىء ما ؟

من الذى منعهم ؟ مع أنهم مجترئون على الله وينكرونه ؟ لم يتحدهم الله أن يكفروا به ، إنما تحداهم أن يطلقوا اسمه على شىء آخر ، فلماذا لم يضع الكفرة والملحدون هذا الاسم على شىء آخر ؟

هذا يدل على أن ليس هناك حقيقة مقدسة فى الفطرة والوجدان تقاوم هذه الحقيقة أبدا .

إذن فهناك معنى نفسى ، هذا المعنى النفسى لايكذب صاحبه ، ولذلك فالجماعة الذين ينكرون وجود القوة إذا وقعوا فى مأزق من المآزق واستنفدت فيه أسبابهم ، ينطقون بلا شعور هاتفين باسم تلك القوة قائلين يارب . . لأنه عند استنفاد الأسباب تنمحى غريزة العناد ، لأنها أمر يتعلق بنفسه ، ولا يجب أن يسلم نفسه هكذا فيقول : يارب

والذى جعله يقول يارب فى غفلة عناده هو المعنى النفسى المستقر فى وجدانه ، وهو أنه لايمكن أن يكون بدون رب ... فما الذى ستره إذن ؟ العناد والتعالى عن اتباع المنهج .

* * *

انظـــروا إلى الكـــون :

وكل ما يوجد كدليل فى القرآن إنما هو دليل على الوحدانية، وإن أخذ الدليل على الوجود بالتبع . . لماذا ؟

لأن الذى يضمن سلعته يحاول دائماً أن ينبه المشترى إليها ، والذى لايطمئن إلى سلعته يحاول دائماً أن يأخذ المشترى السلعة فى غفلة ، لكن عندما يثق البائع فى سلعة يقول للمشترى : فتش فيها جيداً . . انظر بعقلك . . أبقها عندك وجربها .

إذن فكل هذا دليل على ماذا ؟

القرآن يقول : لا أريد شيئاً . . إلا أن ينظروا فى الكون . أفلم ينظروا . . أفلا يتفكرون . . إذن القرآن واثق فى أن المسألة لا تحتاج إلا إلى لفت النظر إلى هذا الكون ، فاذا التفت إلى الكون ، فسيقودك ذلك الكون إلى الفكرة .

القرآن لايخشى على تنبيه عقلى وإيقاظ وجدانى إلا إذا كان هناك وثوق من أن ذلك التنبية لصالح الفكرة . . ولوكان ضد الفكرة لما أهاب بالناس أن ينتبهوا .

ولفت القرآن أنظارنا إلى الكون ، وأهاب بنا أن ننظر فيه . . والذى لاشك فيه أن لنا وسائل إدراك تربطنا بالكون الخارجى ، فقال لنا القرآن : خذوا هذه الوسائل الإدراكية التى تثقون فيها ، لا داعى للوجدانيات والمنابع النفسية الداخلية ، خذ الذى يربطك بالعالم الخارجى ، ولهذا أعطانا الحق القضية كاملة فقال :

﴿ وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (١) .

ثم يقول :

﴿ وَفِى الأَرْضِ آياتٌ للمُوقِنين ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الذاريات ، آية : ٢١ .

(٢) سورة الذاريات ، آية : ٢٠ .

فالذى يأتى من ناحية داخل نفسه يستطيع أن يجد الدليل ، والذى يأتى من ناحية خارج النفس يجد الدليل . . فكأن الدليل موجود داخل النفس وخارجها ، فالذى سلمت عنده هذه الأدوات يستطيع أن يدرك بها :

﴿ وفِى أَنْفُسِكُم أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ .

﴿ وفِى الأَرْضِ آياتٌ للموقِنين ﴾ .

﴿ سَنُرِيهِم آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ ﴾ (١) .

* * *

النظــر متاح لكل المستويات :

إذن فالذى يتبلد وجدانه ومشاعره وأحاسيسه نأخذه من الأشياء المسلم بها ، ونقول له : انظر فى الكون ، وابدأ بموقفك فيه .

يقول : موقفى أننى أرى نفسى بحكم الواقع ، فأنا المنتفع بهذا الكون كله ، لأن الكون بأجناسه : الحيوانات التى بعدى ، والنبات الذى بعد الحيوان ، والجماد الذى بعد النبات ، كلها فى خدمتى أنا . .

ونجد أن كل جنس يمتاز عن الذى بعده بخاصية ، ولو لم توجد الخاصية لظل الجنس جنساً . . فمثلا الجماد قلنا : إنه شىء له حيز ، وله قانون ، وله كثافة ، وبعد ذلك يزيد عنه النبات شيئاً واحداً ، وهو أنه ينمو . إذن فالنبات أخذ خاصية النمو ، فصار جنساً آخر غير الجماد .

ثم أخذ الحيوان خاصية زائدة ، وهى أنه ذو حس وحركة . . ثم أخذ الإنسان خاصية زائدة عن الحيوان هى : أن له فكرا .

إذن عند تسلسل الأجناس ، نجد جمادات تزيد لها خاصية النمو فتصير نباتاً ، ويزيد النبات خاصية الحس والحركة فيصير حيواناً ، ويزيد الحيوان خاصية الفكر فيصير إنساناً .

---

(١) سورة فصلت ، آية : ٥٣ .

لكن هل ارتقاء الجنس عما دونه عن نطاقه ؟ لا . . أنا الآن فى فكر جعلنى إنساناً . . الفكر خاصية زائدة عما يوجد فى من حيوانية « فأنا مشترك مع الحيوان فى باقى الأشياء ، وكل الصفات ، والحيوان مشترك مع النبات فى كل الصفات ماعدا خاصية الحس والحركة ، والنبات مشترك مع الجماد فى جميع الصفات ماعدا خاصية النمو .

إذن فالإنسان فيه جمادية ، ونباتية ، وحيوانية . . وفيه إنسانية وهى الفكرية الأخيرة .

ما هى مهمة كل منها ؟

مهمة كل منها مسلسلة ، كل واحدة تخدم الأعلى منها . . الجماد يتمثل مثلا فى الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والماء ، لانقصد الجماد السائل والصلب فقط ، بل الجماد هو كل ماليس له نمو .

كل هذا يخدم الأجناس الأعلى منه . . فالنبات يستفيد منه ، والحيوان يستفيد منه ، والإنسان يستفيد منه ، إذن الجماد فى خدمة ثلاثة أجناس .

والنبات ليس فى خدمة الجماد ، لايخدم ما هو أنزل منه ، إنما يخدم ما هو أعلى منه . . وهو الحيوان والإنسان .

ثم الحيوان فى خدمة الإنسان ، والإنسان هذا السيد الذى يأخذ خدمة الكل فى خدمة من ؟ فى خدمة الخالق سبحانه وتعالى .

ولو لم يبحث له عن مهمة فى الوجود لكان أتفه من الجماد ، وأتفه من النبات ، وأتفه من الحيوان ، لأن هذه لها مهمة ، وهو ليس له مهمة ، وكما أن مهمة كل شىء ترتقى ، إذن فمهمته لابد أن تكون مرتقية .

إذن البحث العقلى الأول : أن الإنسان إذا سلسل أجناس الوجود وجد أجناس الوجود مسلسلة بأن الأدنى فى خدمة الأعلى ، وكلها تصب فيه ، وهو فيه ، وهو لايصب فى شىء أبدا .

إذن للعقل أن يقف موقفا أولا فى أن يوجد له مهمة ، يعنى يجد له جنساً أعلى يرتبط به ، وإلا لم تكن لم مهمة .

* * *

العقـــل وقانـــون السبب والنتيجة :

وقفة عقلية أخرى ، وهى أنك لم تسخر الأجناس التى هى أدنى منك بقدرتك ، لأن هناك ما هو أقوى منك ، وما لايدخل تحت طاقتك فالشمس لاتدخل تحت طاقتك ، وهناك حيوانات ضخمة لاتدخل تحت طاقتك ، وأنا لاأمسك البذرة وأمطها لكى تنمو .

إذن لابد أن يقف العقل ويقول : ومن الذى جعلنى سيدا ؟ مادمت أنا لم أنصب من نفسى سيدا على هذه الأشياء التى تخدمنى ، فمن الذى سخرها لتكون فى خدمتى على هذه الصورة ؟

وبحث آخر فى قانون الأسباب والمسببات ، وبحث آخر عن الجنس الذى جعل هذا فى خدمة هذا . .

والعلم عندما يكون فهو لا يوجد ضرورات الحياة ، وإنما يعطى الترف والدلة فى الحياة . . العلم لم يكتشف شيئاً ينفع بديلا عن الطعام المستخرج من الأرض ، بل إن الطعام لايزال مستخرجاً من الأرض برغم تقدم العلم .

إذن فالحضارة ورقى الحياة إنما هو فى ترفها ، فقد كنا نشرب الماء من « الزير » فبدأنا نشربه من « الكوب » . كان الهواء يأتى ساخناً ، فبدأ العلم يعمل على أن يأتى الهواء ساخناً فى الشتاء ، وبارداً فى الصيف إذن لم يأت العلم بضرورة حياة .

ثم ينظر العقل نظرة أخرى فى وجود الإنسان وضرورات حياته فيقول : استبقاء ضرورات الحياة يريد الطعام والماء والهواء ، والإنسان يجدها بقدر وحكمة .

فالطعام لايصبر عنه الإنسان ، وإنما عنده قوة على أن يعيش بدون طعام مدة طويلة ، لأن الميكانيكا الإنسانية تمتاز عن الميكانيكا الأخرى بأن فيها مخازن أقوات ذاتية ، فالسيارة عندما ينتهى منها البنزين تقف ، ليس عندها قوة ذاتية ، لأنها صنعة بشر . لكن صنعة الحق سبحانه وتعالى تجعل

الإنسان يتغذى ، ويأخذ السعر الحرارى اللازم لحياته ، ثم يخزن الباقى ، وعندما يجوع يبدأ فى استهلاك المخزون .

ولذلك حينما يتأخر الإنسان عن ميعاد طعامه نصف ساعة مثلا ، فإن نفسه تصد عن الطعام ، وذلك لأنه تغذى من الداخل ، والجسم أخذ طاقته فى موعدها ، فعندما انعدمت الصلة بالعالم الخارجى بدأت الصلة بالعالم الداخلى ، ويذوب الشحم منه ، ثم يعطى اللحم والعضلات ، وآخر شىء يجىء منه الطعام المخزون هو العظم والنخاع . قال تعالى :

﴿ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ العظْمُ مِنِّى ﴾ (١) .

ولكن الماء لا أصبر عنه أبدا ، آخر زمن أصبر عن الماء فيه سبعة أيام ، أما الهواء فلا أصبر عنه لحظة .

* * *

دلالة البقـــاء وقانـــون التملك :

ولهذا كان التملك فى الكون على قدر الحاجة إلى وسائل البقاء .. فالمسائل دائماً تتبع أهميتها . . الهواء ، والماء ، والطعام .

فالطعام من الممكن أن يحتكره الإنسان ويملكه ، ولذلك أستطيع الصبر عنه مدة طويلة . . أما الماء فقل من يحتكره ، لأنى لا أستطيع أن أصبر عنه مدة طويلة ، لكن الهواء لاأستطيع أن أصبر عنه لحظة ، ولذلك لايمكن احتكاره أبداً ، ولا ينضب أبدا ، فالحق سبحانه هو الذى يملكه ، وليس الإنسان . . لأن الإنسان إذا ملكه فمن الجائز أن يغضب على أخيه فيمنعه عنه ، ويمكن أن يطول الغضب دقيقة مثلا حتى يرضى ، وحينما يرضى يكون المغضوب عليه انتهى . ولهذا فالهواء لايملكه إنسان أبدا .

والضرورة الأصلية للماء لايملكها إنسان أبدا كذلك . . أما الضرورة

---

(١) سورة مريم ، آية : ٤ .

الثانية فمن الجائز أن تملك ، لأن عندى مخزون يكفينى حتى أبحث إذن العملية الترتيبية لم يأت بترتيبي ، ولاكنت أفهمها ، لا أفهم أن عندى مخزناً يحفظ الله لى فيه طعامى إلى أن ينتهى طعامى من الخارج ، بل عرفنا ذلك أخيراً بعد التحليلات .

إذن فأنا مخلوق ذو أهمية بالغة ، لأنى مخلوق عظيم ، والأجناس كلها فى خدمتى ، وهى أقوى منى ، ومع ذلك فهى تخدمنى ، وأنا لم أسخرها بقوتى ، لأن كثيراً منها لايدخل تحت قدرتى ، وكذلك قانون الأجناس .

إذن عندما نعمل على رقى الحياة ، فالأساس ألاترقيها فى الضروريات ، وإنما ترقيها فى الأمر الكمالى الترفى .

وإذا أخذنا كوباً من الزجاج ، وبحثنا عن تسلسل صنعه ، فسيقول الخبراء : أحضرنا الرمال من المكان الفلانى ، وصهرناها فى المكان الفلانى ، وأضفنا إليها عناصر كذا وكذا . .

وأذهب إلى مكان الرمال فأجد متعهدين يحضرون الرمال من مطامرها ، فإذا سألت عن مصدر الرمل انقطع الجواب .. فقد انقطعت أسباب الخلق ، وبدأت يد الخالق سبحانه وتعالى .

وهذه الماصة صنعت من الخشب والخشب مستورد من السويد ، نذهب إلى السويد ، ونسأل : من أين جئتم بالخشب ، فيقولون : من الغابة . فلا نجد جواباً . .

إذن هى مسائل مسلسلة ، من سبب إلى سبب إلى سبب ، حتى ينتهى السبب ، فيظهر المسبب الأكبر .

* * *

دلالة نظام الكـــون وتمـــرد الإنســـان :

وإذا كانت الصنعة التافهة تريد هذه الأدوات من الخبرة والأجهزة العلمية والنفقات الباهظة ، فإن الصنعة المهمة تحتاج إلى طاقات وإمكانيات وخبرات على قدرها ، وما بالك بعد ذلك بالصنعة الدقيقة التى يسير عليها الكون فى نظامه الهائل الباهر .

إذن فالعقل لابد أن يبحث للوجود عن صانع ، ثم ينظر ، فنجد أن الوجود كله يسير بنظام إلا هو . . فهو لايسير بنظام أوتوماتيكى .

الجماد ، والنبات ، والحيوان ، كلها تسير فى نظامها المخلوقة له ، وتؤديه كما ينبغى ، فهل يؤدى الإنسان نظامه أيضاً كما ينبغى ؟ لا . . بل هو الوحيد الذى تمرد .

والحق سبحانه حينما يعرض هذه المسألة يقول فى الإنسان :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ والشَّمْسُ والقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدوابُّ وكثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حقَّ عَليهِ العَذابُ ﴾ (١) .

لم تنقسم إلا عند الإنسان . . أما غير الإنسان فالسجود بالإجماع . يعنى أن قانون الميكانيكية سائر فى الجماد والنبات والحيوان . أما الانقسام فحاصل عند الإنسان الذى تخدمه كل هذه الكائنات .

وهذه تحتاج إلى وقفة . . من الذى يبين لنا هذا اللغز؟ هبنا لم يرسل لنا رسول ، ولم تنزل علينا كتب ، فقد كنا نتعب تعباً شديداً ، لأن الكون كله سائر بناموس واحد ، والإنسان هو الذى يتمرد . .

لم نجد أمة من النبات أو الحيوان شنت حرباً على أمة أخرى . . لم نر الشمس حرنت يوماً وقالت : لن أطلع . . لم نر الماء نزل من السماء ثلجاً وقال : لن أذوب . . لم نر نباتاً زرعناه فى ظروفه الطبيعية ولم ينبت . . لم نحضر حيواناً وحملنا عليه قامة أو جعلنا منه مطية فعصى .

إذن فكل الكون يسير على نظام ، فلماذا تمرد الإنسان؟
لأن الإنسان مثلما قال الحق :

﴿ إِنَّا عرَضْنَا الأَمَانَةَ علَى السَّموَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبالِ فَأَبَيْنَ أن يحْمِلْنَهَا وأَشْفَقْنَ مِنْهَا وحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٢) .

(١) سورة الحج ، آية : ١٨ .
(٢) سورة الأحزاب ، آية : ٧٢ .

أى اغتر بعقله ... منطقة التميز هى التى جاءت له بالنكسة .

* * *

السجود عند غير الإنسان :

كيف يسجد الجماد ؟ السجود فى بادئ الأمر هو منتهى الخضوع والاستسلام ، لأن السجود حركة ، وهذه الحركة تضع أعلى قمة الإنسان عند أسفل شىء ، إذن كل شىء خاضع لقانون لايخرج عما يريده منه ، هذا هو الخضوع .

تحدث أحياناً عواصف ، وتحدث أحياناً انفجارات ، هذه العواصف والانفجارات أيضاً لخيرك . . ليدلك على ما فى باطن الأرض من خير . . يقول لك : تنبه ، ههنا أشياء . . ونحن نظن أنها ظواهر طبيعية مدمرة . . لا . . لولا هذه ما اكتشفنا ما فى باطن الأرض ، ولذلك فالحق يقول :

﴿ لَهُ مَا فِى السَّمٰواتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ومَا بَيْنَهُمَا وما تَحْتَ الثَّرَى ﴾(١)

فحين يقول : وما تحت الثرى فكأنه يمتن علينا بشىء نفيس ، يقول : ليس الذى له هو ما ظهر فى السموات والأرض فقط ، بل هناك مسائل أخرى مطمورة تحت الثرى .

فلو أن الناس انتبهوا إلى قوله :

﴿ وما تَحْتَ الثَّرى ﴾ .

لنقبوهم تحت الثرى . فالله تعالى يصنع البركان ليقذف لنا ما تحت الثرى فهى مع كونها ظاهرة كما تعرف إلا أنها تدلنا على مافى الأرض من خير ، وهى ليست تمرداً على ما خلقت له ، وإنما هى تكملة لأداء ما خلقت له . . هى جزء من الرسالة . . ونحن ننسف الجبل ، وننحت الجبل . . وهذا دليل واضح على أنه أيضاً مسخر .

﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِم صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة طه ، آية : ٦ .

(٢) سورة النور ، آية : ٤١ .

والعلم الآن يبحث فى ديناميكا الصخور ، وحركته ، وحركة التربة ، وتبين أن الذرة دائمة الحركة والتفاعل ، والصخرة أيضاً لها عمر .

وعندما كنا طلاباً يدرسون لنا المغناطيسية، كانوا يقولون لنا . هناك ظاهرة قبل الجذب هى التأثير . . يحصل التأثير أولا ، ثم الجذب ثانيا . فكانوا يحضرون لنا قضيباً ممغنطاً ، وقضيباً غير ممغنط ليشحنه ، ويقولون : امسك القضيب الممغنط وضعه فى اتجاه واحد ، لكى تترتب جزئياته ، وذلك مع أنه جماد ، ولا نرى له جزئيات .

إذن هناك حركة فى الجماد ، ولكنها ليست فى مستوى إدراكنا ، أرادوا أن يقربوا لنا كيف ترتب هذه الذرات ، فأحضروا لنا أنبوبة زجاجية فيها برادة حديد ، وجاءوا بالقضيب الممغنط فوق الأنبوبة ، فرأينا الذرات تتحرك ، ولكنها كانت تفقد ترتيبها إذا مررنا بالقضيب فى اتجاهين . . وعلمنا أن الاتجاه لابد أن يكون واحداً .

وعلمنا بالتالى صورة الحركة فى الجماد بحركة فى شىء يمكن إدراكه نظرياً وهى برادة الحديد .

إذن هناك حركات وتفاعلات ، لكن ليس عندى وسائل الإدراك التى أدرك بها هذه الأشياء .

ولذلك عندما نرى مثلا قطرة من ماء ، أو قطرة من دم ، بالنظر العادى ، نراها قطرة ثابتة ، ولكن إذا وضعناها تحت المجهر أدركنا الحركة التى فيها . . فالمسألة فيها فرق هائل بين الحس المجرد ، والحس بواسطة الآلة .

فعندما يقول الحق سبحانه :

﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ (١) .

---

(١) سورة النور الآية : ٤١ .

فكأنه ليست كل الصلاة والتسبيح بطريقتنا ، فكل شيء له طريقته التي تدل على الخضوع لله تعالى . . وحينما يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ (١) .

﴿ وَلَكِنْ لاتَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ (١) .

إذن المانع من الفهم ليس أنها غير مسبحة ، ولكن المانع هو الإدراك القاصر الذي لايدرك التسبيح .

* * *

وفي أنفسكم أفلا تبصرون :

وجاء عهد الذرة ، وجدت بحوث اسمها « السيال الذرى » . وأمثال العالم الموجود الآن تساوى ثلاثة آلاف مليون نسمة ، وهذه الأمثال تأتى من ميكروبات تملأ نصف « الكستبان » . وليست هذه المادة كلها هي التي تصنع هذه الأعداد ، بل هذه المادة هي الميكروبات والسائل الذي يغلفها .

وكنا نفهم قديماً أن المنى الذي يمنيه الرجل هو الذي يخلق منه الإنسان ، وتقول: لا . . لأن القرآن يقول :

﴿ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ ﴾ .

فالنطفة هي التي يخلق منها الشيء ، والمنى هو السائل الذي يعيش فيه شيء آخر ،

إذن ما هو قدر هذه الميكروب ؟ مثل الذرة . . وفيه كل خصائص الإنسان ، مثل البذرة .

إذن فالخصائص في الذرة هي العواطف والفكر والأعصاب ، كل شيء

---

(١) سورة الإسراء ، آية : ٤٤ .

فى الإنسان موجود فيها ولكن على شكل مصغر . . والصنعة تبدو عظمتها فى شيئين : أن تدق ، أو تعظم ، كالساعة فى فص الخاتم دليل على أنها صنعة دقيقة وعظيمة ، وكذلك الساعة التى يكون طول عقربها ثلاثة أمتار أيضاً صنعة دقيقة وعظيمة .

إذن فكلما تركز الشىء الكبير فى شىء صغير فهذا دليل على متانة الصنعة وعظمتها .

والبويضة من الأنثى تحتضن الحيوان المنوى للرجل ، ولذلك حين بحثوا فى حديث : « إذا سبق ماء المرأة» . قال العلم : إن ماء المرأة ليس له دخل فى الحمل ، لأن بويضتها تنزل سواء فى العملية الجنسية أو فى غيرها . .

لقد شاء الله بعد أن تقدم علم الأجنة أن يصحح فهم الحديث ، ووجدوا أن ماء الرجل فيه الحيوانين : الذكر والأنثى ، ولكن ماء المرأة أنوثة فقط . ولو أنهم فطنوا إلى كلمة سبق . لما أخطأوا . فالسبق لايأتى إلا إذا كان الانطلاق من مكان واحد ، لايقال فى متقابلين : سبق أحدهما الآخر . إذن فهما منطلقان من الرجل : الذكورة والأنوثة معاً ، فما يلحق البيضة أيضاً يجىء منه الخصب . .

فإذا سبق الذكر كان ذكراً ، وإذا سبق ذكران كانوا توءمين .

وما دامت الذرة فيها كل الخصائص ، فقد خلقهم الله جميعاً وتخاطب معهم ، لأنه خاطب الأرض والسماء . فحينما خاطب الله الخلق فى عهد الذر كان خطاباً على هذه الصورة والله أعلم .

الأسماء والصـــفات

هناك صفات لله تعالى نسميها أيضاً أسماء . فمتى تنتقل الصفة إلى اسم ؟ تنتقل الصفة إلى اسم إذا بلغ الكمال فى الصفة مبلغاً بحيث إذا أطلق انصرفت إلى الله ، فإذا قلت : رأيت فلاناً الغنى . . يصح زيد الغنى ، محمد الغنى . . لكن إذا أفردت كلمة (الغنى) فقط ، تنصرف إلى الكمال المطلق فى الغنى ، وحين تنصرف كلمة الوصف فى إطلاقها إلى الكمال المطلق يصبح مدلولها (الله) .

ومادام مدلولها الله ، فقد انتقلت من باب الصفة إلى باب الاسم . ولذلك يقول الله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ (١) .

* * *

صفة الذات وصفة الفعـــل :

صفات الحق سبحانه وتعالى أو أسماؤه الحسنى تنقسم إلى قسمين : صفة للذات ، وصفة للعقل . ما هو الفرق بين صفة الذات وصفة العقل ؟

صفة الذات هى التى لايوجد لها مقابل فى الأسماء ، وصفة العقل هى التى يوجد لها مقابل .

فإذا قلت : الله حى ، كانت (حى) صفة ذات ، إنما (محيى) صفة فعل ، لأن (محيى) يوجد لها مقابل وهو (مميت) . لكن حى لايوجد مقابلها وهو (ميت) .

فإذا رأيت الصفة لامقابل لها فاعلم أنها صفة ذات ، وإذا رأيت الصفة

---

(١) سورة الأعراف آية ١٨٠ .

لها مقابل فاعلم أنها من صفة الفعل . فتقول الله (عزيز) صفة ذات . إنما الله (المعز) صفة فعل ، لأنه يوجد مقابلها (مذل) . ومحيي يقتضى أن يكون مميتاً ، وقابض يقتضى أن يكون باسطاً ، ورافع يقتضى أن يكون خافضاً ، لأن معنى الصفة فى متعلق فعله ، وليس فى ذاته ، عزيز هو فى ذاته ، وبعد ذلك يخلع العزة على من يشاء ، ويعطى الذلة لمن يشاء .

* * *

الكلى الجـزئى :

فاذا جاء الحق ليقول : (الله) أى علم واجب الوجود ، ويعطينا الحق وصفاً ، وهذا الوصف لابد أن يكون قد وقع فيه خلاف ، فحين يقول :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (١) .

فكأنه حصل انحراف فى نقل لفظ الجلالة على أشياء ليست أحداً ، وعلى شىء ليس صمداً ، وعلى شىء ولد ، وعلى شىء له نظير . فيريد الحق أن يعدل .

صحيح أن لفظ (الله) لم يطلق على شىء ، ومادام يقول « الله أحد » فكأن ذلك تثبيتاً لعقيدة قد خولفت : فكأن هناك عقولا اعتقدت أن الله ليس أحداً . . إلخ . ولفظ الجلالة لانزاع فيه ، وإنما النزاع فيما بعده :

فكلمة (أحد) هذه إذا نظرنا إليها وجدناها تتعلق لابكونه واحداً ، فإن الشىء قد يكون واحداً ، ولكنك إذا نظرت إلى تركيبه وجدته مركباً من أشياء ، فكلمة (أحد) تنفى هذا التركيب .

وما دام الشىء مركبا من أجزاء ، فالكل محتاج إلى أجزائه ، وكل

---

(١) سورة الإخلاص ، آيات : ١ — ٤ .

جزء محتاج إلى أن تنضم إليه أجزاؤه . فيحدث احتياج فى الاسم .

وحين نقول (واحد) فمعناه نفى أن يكون هناك واحد مثله ، إنها لم ينف عنه أنه فى ذاته مركب .

إذن فكلمة الأحد تعطى كلمة واحد ، وواحد غير مركب .

هناك شيء عند المناطقة الفلاسفة اسمة الكل أو الكلى . . يقابل الكل الجزء ، ويقابل الكلى الجزئى . فما الفرق بين الكل والكلى ، والجزء والجزئى ؟

الكل يقال على كثيرين ، ولكنهم متفقون فى الحقيقة . . كلمة إنسان كل تقال على من يحمل اسمة زيد وعمرو ومحمد وخالد ، حقيقتهم متفقة . يعنى الحقيقة فى زيد هى الحقيقة فى عمرو . . إذن فهؤلاء أفراد الكل ، فكلمة إنسان كل ، أى تطلق على كثيرين . إنما هؤلاء جميعاً متفقون فى الحقيقة .

وكيف نعرف اتفاقهم فى حقيقة التكوين ؟

بأن تجعل أحدهما موضوعاً والآخر محمولا . . إذا قلت : زيد إنسان . فالقضية صحيحة . . عمرو إنسان . . صحيحة . . إذن فالكل يطلق على أفراد ، وهم متساوون فى الحقيقة . . وكل فرد يؤدى معنى الكل .

ولكن الكلى ، يتفق مع الكل فى أنه يطلق على كثيرين ، ولكنهم مختلفون فى الحقيقة . فكلمة (الكرسى) كلى ، لأنه يطلق على أشياء كثيرة على الخشب والمسامير ، والجلد ، والطلاء ، وغير ذلك من مقوماته ، إذن فهذه الكلمة كلى ، وأطلقت على أشياء كثيرة ، إلا أن الأشياء الكثيرة ليست متفقة فى الحقيقة ، فلا يصح أن تقول : الخشب كرسى ، ولا المسامير كرسى ، كما قلت : زيد إنسان .

فإذا قلت (واحد) فهل هو كل أو كلى ؟

نقول : واحد (كل) لكن فرد له إلا الله . . ولذلك يصح أن يجىء للغير ، تقول : لقيت رجلا واحداً ، واحد وعشرون للعدد مثلا ، إذن فيه أفراد ، إلا أن ميزة إطلاقه على الحق أنه يعد كلا يطلق على أفراد متفقين فى الحقيقة .

فإذا كان واحد لا يقتضى أن يكون كليا . . هو واحد صحيح ، لكن يصح أنه مركب من أشياء ، وهذا التركيب هو الممتنع . .

إذن فكلمة (واحد) غير كلمة (أحد) أحد ليس كلياً .. وواحد ليس كلا . . وقد وقع البشر فى ورطة المذاهب التى يقول بعضها إن الله هو الأب والروح شىء واحد قالوا الله واحد ، لكنه مكون من أقاليم هى الأب والابن والروح ،وهذه الثلاثة شىء واحد ..هوالله . وهم من هذه الوجهة قالوا (واحد) . نقول : نعم واحد ، ولكن ليس أحداً ، لأنه مركب من ثلاثة .

لا إكراه فى الديـــن

هناك صنفان من الناس : صنف يعلم ويكفيه أن يعلم ، ليحمل نفسه على ما علم . . وصنف يعلم ، ولكنه غير قادر على أن يحمل نفسه على منهج ما علم . .

الصنف الأول تكفيه الحجة والبرهان ، والصنف الثانى لا يقنعه أى شىء ، بل يخترع الحجة ليقنع نفسه بعد السير أوالإعلان أو التسليم بما علم .

وهذا الصنف الثانى هو الذى يدعى الإكراه فى الإسلام ، وأنه انتشر بالقوة والسيف .

ووجود الحرب لابد أن يكون معه سيف ، ولكن هل السيف هو الذى أوجد الحرب ، أو الحرب هى التى أوجدت السيف ؟

حين تجد سيفاً أقنعك بحرب فاعلم أنها قضية باطل ، ولكن حين توجب الحرب السيف فاعلم أنها قضية حق . . لذلك فالأصل فى السيف أن يكون حارساً لكلمة الحق ، لا أن يكون معيناً على كاتمة الباطل . ولذلك أخذت هذه القضية عند المستشرقين دوراً عميقاً أرادوا به أن يشوهوا وجه الإسلام فى سياحته فى الدنيا ، فقالوا : إن الإسلام فرض بالسيف والإكراه .

ونقول بأبسط عبارة : ومن الذى حمل السيف ليحمل الناس على منهج الإسلام ؟ هل بدأ الإسلام سيفاً ، أم بدأ حرفاً وكلاماً مقنعاً ؟

إن الذين حملوا السيف ليسيحوا به فى الأرض لم يفرض الإسلام عليهم بالسيف ، وإنما دخلوه عن اقتناع : وقوة برهان ، وانصياع لحجة ، ومن هنا أخذ الإسلام دوره السلمى الأول فى أن المقتنعين به اضطهدوا فى ذواتهم ، واضطهدوا فى أموالهم ، واضطهدوا فى أهلهم ، واضطهدوا فى أوطانهم ،

إذن فكانوا قلة ، وكانوا أذلة ، ولم يكن لهم من جاه الحياه شىء : فما الذى حملهم على أن يحملوا السيف ليجتاحوا به الأرض ؟

إنما حملهم على ذلك الاقتناع أولا ، لأنهم كانوا قلة ، وكانوا لا يستطيعون أن يدافعوا على أنفسهم ، فالذى حمل السيف لم يفرض عليه أن تحمل السيف إلا بعد اقتناع . . وتلك هى فلسفة النشأة الأولى فى مكة ، حتى يعلم الناس أن الناس قد اقتنعوا ، فحملوا السيف ، ولم يحملوه ليجبروا أحداً على الإيمان والإسلام . . بل حملوه فقط ليمنعوا المعوقات التى تعرف الكلمة التى تصل إلى الأذن .

إذن حملوه ليقفوا أمام كتل الطغيان التى تحارب حجة الحق ، وكان هدفهم من ذلك هو حرية الرأى أولا وأخيراً .

وذلك أن الكفار كانوا يحملون السيف ليفرضوا على الناس سماع كلمة الباطل ، ويمنعوهم من سماع كلمة الحق . وحمل الإسلام السيف عن قناعة ، ولكن لا ليفرض كلمة الحق ، بل لكى تصل إلى آذان الناس ، وتكون الفرصة متساوية ، فيستمع الناس حجة هؤلاء وحجة هؤلاء ، وبعد ذلك يختارون ما يختارون بإرادة حرة ، لا يفرض فيها السيف رأياً ، ولا يفرض ديناً .

وإن المبادئ التى تفرض على الناس بالقوة أول شىء يعرف فيها أن صاحبها غير مقتنع بها ، ولو كان مقتنعاً بها لقال : ما الذى يمنع الناس حين أعرض عليهم منهج الحق والخير والكمال أن يقتنعوا به ؟ ولكنه فى الواقع غير مقتنع . . فهو يقول فى نفسه : إن لم أحمل الناس على ذلك المبدأ بالقوة لما اقتنع به أحد ، ولو كان مقتنعاً به فى ذات نفسه لرآى ذلك أيضاً فى غيره .

والإسلام لا يريد قوالب تخضع ، ولكنه يريد قلوباً تخشع ، والقوة التى تفرض إنما تتحكم فى القالب فقط ، ولكنها لا تتحكم فى القلب أبداً . . فمن الممكن أن نكره إنساناً على عمله يعمله ، وأن نجبره على أن يقوم بذلك العمل بقالبه وحركة عضلاته ، ولكن ليس من الممكن أن نقنع قلبه أن يعتقد شيئاً ، لأن العقيدة هى الشىء الذى لا يمكن الإكراه عليه

إنك تستطيع أن تكره الإنسان على أن يقوم بأي شيء ، ولكنك لا تستطيع ولن تستطيع قوى الدنيا كلها أن تكره إنساناً على أن يضع في قلبه غير ما يحب ، وأن يصدق قلبه بغير ما يريد .

وذلك لأن القلب خارج عن حدود السيطرة البشرية ، بحيث لا يستطيع إنسان أن يكره إنساناً على أن يحبه ، أو أن يصدق شيئاً ما ، أو على أن يعتقد في مبدأ ما .

إذن فالإكراه ليس من مبدأ الإسلام ، والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ لا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ ﴾ (١) .

ولا يعقل أن يحمل المسلمون السيف ليقوموا بشيء قد نهى الله عنه ، وهو الإكراه .. أن يحملوا السيف ليكرهوا الناس على الدين ، بينما الله يقول لهم :

﴿ لا إكراه فِى الدِّينِ ﴾

ولكن السيف هنا وجد ليدافع عن الإرادة الحرة للإنسان ، أى إن السيف وجد ليمنع الإكراه، ويعطى الناس الفرصة للاختيار بدون إكراه أو ضغط أو إرهاب .

إذن فالإكراه ليس منطقاً للإسلام ، فإذا رأينا إسلاماً التجأ إلى السيف فإنما فقط ليعطى فرصة التكافؤ فى الاختيار .

هناك قوى كانت تحكم العالم ، وتفرض عليه أشياء وخرافات تقتنع بها ، فجاء الإسلام ليكبت هذه القوى ، وليقول كلمته أمام الناس ، ثم يطرح قضية الحق عليهم ، قضية الدين الحنيف ، فمن آمن بها آمن بقلبه ، ومن لم يؤمن بها ظل على دينه .

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٥٦ .

ولذلك كانت هناك أمم من اليهود ، وأمم من المجوس ، وأمم من النصارى لم يتعرض لها المسلمون وهم فى سياحتهم ، بل ظل أولئك فى حرابنة منهج آخر ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا .

ولو أن الإسلام فرض بالسيف كما يقولون ، لما وجد إلا مسلم فى أى أرض يدخلها الإسلام ، فوجود غير المسلمين فى أرض الإسلام دليل على أن الإسلام لم يجئ ليحمل الناس على مبدأ من المبادئ التى لا يستطيعها سلوكهم ، ولا تقبلها قلوبهم ، وإنما أراد فقط أن يزيح المعوقات فى اختيار البدائل .

وشرف الإسلام فى أنه أول من حارب من أجل حرية الرأى وحرية العقيدة — كانت هناك حروب من أجل فرض الرأى ، وحروب من أجل فرض العقيدة ، وهذه الحروب وتلك نعرفها جيداً فى التاريخ ، ونعرف أولئك الذين قاموا بها ، ولكن ما من حرب قامت من أجل حرية الرأى وحرية الفكر وحرية الاختيار إلا الحروب الإسلامية .

فلئن كان حديث اليوم عن حرية الفكر وحرية العقيدة مظهر من أعظم مظاهر التقدم فى الأمم ، فإن الإسلام قد سبق فى هـذا التقدم ، وإنه أول من حارب وقاتل دفاعاً عن حرية الكلمة ، وحرية العقيدة .

وهكذا أثبت الإسلام أنه لم يحقق أى انتصار بالسيف ، ولكنه حقق الانتصار بالرأى والإقناع ، لقد حمل الإسلام السيف لأن أولئك الذين وقفوا ضده منعوا حرية الرأى والعقيدة ، ومنعوا غير المسلمين من الاستماع إلى مبادئ الإسلام الحقيقية .

ونعود إلى كلمة فى فلسفة النشأة الأولى لعقيدة الإسلام على أرض مكة المكرمة .. فحينما عالج رسول الله صلى الله عليه وسلم قضية الإيمان بمكه ، فلابد أن نعرف أولا شرف مكة ومكانتها فى الجزيرة العربية .

كانت مكة تأخذ مكان السيطرة فى الجريرة كلها ، ومن العجيب أن

أخذها مكان السيطرة على الجزيرة كان مرجعه فى الأصل إيمانيا . . انظر كيف كان الإيمان الذى جعل مكة سيدة الجزيرة ، وكيف قلب الاستعلاء والكبر موضع مكة ، حتى جعل أهلها مميزاتها ذاتية فيهم ، وغير منسوبة إلى الحق سبحانه وتعالى .

إنهم لم يأخذوا المكان ، ولم يأخذوا المكانة ، إلا لأن بيت الله الحرام كان فى مكة ، وبيت الله يحج إليه العرب من أطراف الجزيرة ، إذن فكل قبيلة منتشرة فى الجزيرة لابد أن تأتى يوماً إلى مكة ، وقريش هى سيدة مكة ، وهى صاحبة المهابة بين العرب ، وهى صاحبة السدانة للكعبة ، والسقاية للحاج ، أى إن السيادة جاءتهم بسبب بيت الله .

ومهابة قريش جعلت لهم رحلتين : رحلة الشتاء ، ورحلة الصيف ، وأصبحوا مأمونين على أموال الناس جميعاً ، يتاجرون فيها ، لأن مهابتهم ومكانتهم كانت تجعل القبائل التى يمرون عليها مجنبين إلى اليمن ، أو متشاملين إلى الشام ، فى مهابة من قريش ، لأن إذا اعتدت عليهم قبيلة ، فسيأتى يوم تكون فيه تلك القبيلة فى أحضان قريش فى موسم الحج بمكة .

إذن فقريش لا يتعرض لها أحد بسوء ، ومن هنا كانت المكانة ، إذن فالمكانة التى كانت لمكة وقريش كانت إيمانية ، فأخذوها وجعلوها ذاتية لأنفسهم ، ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يطلب منهم أن يتذكروا نعمة الله عليهم ، لأنه منع عنهم هدم الكعبة على يد أبرهة ، لئلا يضيع عنهم سبب المهابة .

كان من الممكن أن يقول قائل : إن مكة يمكن ألا تكون هى البيئة الأصيلة للدعوة ، كان يجب أن يبحث الرسول صلى الله عليه وسلم عن مكان آخر ، لأن هؤلاء سادة ، ولا يستطيع أحد أن يقف أمامهم .

لا . . إنما أراد الله سبحانه أن تكون صيحة الضعاف الذين لا يملكون

القوة الدنيوية من المسلمين أولا فى مكة ، وفى آذان سادة قريش ، حتى لا يقال : إنهم استغلوا الضعاف من القبائل الأخرى ، وأن السيف كان للسيطرة على الضعاف .

لابد أن تكون الصيحة الإيمانية فى آذان سادة مكة ، وذلك أمر أصيل ، لأن السيادة لقريش لم تكن إلا إيمانية .

فإن استغلوها كفرية ، فلماذا ألا يعيدونها إيمانية من جديد ؟

من هنا كانت الصيحة فى آذان السادة ، حتى لا يقال : إن أتباع محمد ستضعفوا طوائف من العرب ، ونادوا فيهم بدعوتهم .

لا . . إن الصيحة هنا ، وإن المعركة هنا ، حتى يتربى الذين شدوا بالإسلام أولا على أن يتحملوا السطوة بكل قوتها ، وأشرس أدواتها ، حتى إذا ما صبر المؤمنون وصمدوا ، كانوا هم الأولى بأن يحملوا منهج الله ومنطقه إلى العالم أجمع .

والمنطق من المدينة لمـــاذا ؟

كما أن لتلك حكمة ، فلذا أيضاً حكمة .

فلو أن الانطلاقة الإيمانية ، والدولة الإسلامية كانت فى مكة ، فربما قال قائل : قوم ألفوا السيادة ، فتعصبوا لواحد منهم ليسودوا به الدنيا . هو سيكون رسولا إلى العالم ، فلماذا لا يسودون به العالم أجمع ؟ فشاء الله ألا يكون انتصار الإسلام فى مكة ، حتى لا يقال : إن قوماً تعصبوا لواحد منهم ليسودوا به العالم .

وليعلم الناس جميعاً أن العصبية لمحمد لم تخلق الإيمان ، ولكن الإيمان بمحمد هو الذى خلق العصبية لمحمد . . ومن هنا تنقطع حجة الإكراة انقطاعاً كاملا .

قضايا الإيمان

للإيمان قضايا كثيرة جداً ، ولكننا سنكتفى هنا بما ينفع المسلم ، وهو : الوحدانية ، والإخلاص ، والإيمان ذاته .

* * *

الإيمــــان :

الإيمان كل مادته من الاطمئنان من الأمن ، والأمانة ، والأمين ، والمأمون ، كل المادة توحى بالاطمئنان ، فالإيمان : اطمئنان القلب إلى قضية ما . . ومعنى اطمئنان القلب إلى قضية ما : أن هذه القضية تجاوزت منطقة العقل الذى يبحث فى صدقها ، يعنى لم تعد محل بحث ، ولا تطفو مرة أخرى إلى الذهن لتناقش من جديد .

هذا هو معنى الإيمان . . أى قضية تحمل مبدأ من المبادئ ، هذه القضية آمن بها العقل أولا ، واستقرت فى القلب ، ومعنى استقرارها فى القلب أنها لم تعد محل بحث ، أى أصبحت فى منتهى التسليم ، والاطمئنان إليها . هذا هو معنى الإيمان .

والاطمئنان الإيمانى : أن تتوجه بعبادتك إلى الإله الذى يملك الحول والطول ، والضر والنفع ، لا تظل فكرتك فى أنك تعبد ما لا ينفع ولا يضر ، لا تظل فكرتك فى أنك تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً .

وما دمت آمنت بالإله الواحد الذى ليس له شريك يعارضه ، أو سند مقصود قصد اضطرار كالمسخرات ، أو قصد اختيار كالإنسان ، وما دمت هكذا فأنت مطمئن تمام الاطمئنان إلى أن هذه العقيدة قد جعلتك تؤمن بإله يمنح لك كل الخير .

هذا هو الاطمئنان ، وقد قلنا مراراً إن المفسرين حينما تعرضوا لقول الله تعالى حكاية عن إبراهيم :

﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِي الموْتَى قالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى ولٰكِن لِيطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾(١) .

قلنا : إن كلمة ﴿بلى﴾ بعد الاستفهام المنفى ﴿أو لم تؤمن﴾ ،معناها آمنت . ولكن ليطمئن قلبي . . فما دام سؤاله يقصد به أن يطمئن قلبه ، فالاطمئنان لم يكن موجوداً . فكيف جاز له أن يجيب بأنه آمن ، مع أنه يريد اطمئنان القلب؟

قلنا : إن المفسرين فاتهم أن الجملة جاءت على صيغة السؤال ، وصيغة السؤال لم تكن : أتحيي الموتى ؟ ولكن قال : كيف تحيي الموتى .. وحين نسأل عن الكيفية فالحدث فى ذاته متيقن .

فقول إبراهيم : ﴿بلى﴾ يعنى : أنا أومن بأنك تحيي الموتى ، وهذا هو القدر المطلوب من المؤمن ، أما ما هى الكيفية ؟ فليست هى القدر المطلوب منك .

فكأن الله فى قوله : ﴿أولم تؤمن﴾ يلفته إلى لفتة هى أن كيفية حدوث الأشياء من الله ليست عنصراً من عناصر الإيمان . . وإنما عنصر الإيمان أن تعرف أن الله يحيي الموتى . أما كيف يحييهم فهذا علمه عند الله . ليس مهماً أن تعرفه .

فكأن قول إبراهيم : ﴿بلى﴾ أى أعتقد أنك تحيي الموتى ، لكن أنا أريد معرفة الكيفية . . إذن طلب الاطمئنان لم يرد على القضية ، وإنما على الكيفية التى جاءت عليها القضية .

ولذلك نقول : كيف بنيت هذه الجامعة ؟ أما لم أقل الجامعة بنيت أم لم تبن ؟ بل هى مبنية ، وأنا أشير إليها ، إذن فالسؤال فى قوله : ﴿أرنى كيف﴾ ولم يقل : أتحيي ؟ أو هل تحيي ؟

إذن فالاطمئنان لا يعنى معرفة الكيفية التى تحدث عليها الأشياء ، لأن الكيفية التى عليها الأشياء من اختصاص الرب سبحانه . . ولذلك أجاب الحق على سيدنا إبراهيم إجابة ليست جبرية .. ليست لسانية .. بل إجابة فعلية بحيث يشارك هو فيها . . بل يكون هو الفاعل الأساسى فيها .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٦٠ .

قال له : ﴿ خُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطيرِ ﴾ . . أنت الذى تأخذها ﴿ فصرهُنَّ إليْكَ ﴾ ضمهن إليك وتأكد منهن ، وبعد ذلك اذبحها وقطعها ﴿ واجْعَل علَى كلِّ جَبلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ﴾ وبعد ذلك ادعهن ﴿ يأْتِينكَ سَعْيًا ﴾ لا تدع الدعوة لى، لأن كونى أدعوها فتحيا مسألة سهلة ، إنما العظمة فى أن أنقل إليك من قوتى لتفعل أنت .

والفرق بين قوة الحق وقوة الخلق : أن قوة الخلق لا تتعدى إلى الضعيف ، وإنما يتعدى أثرها إلى الضعيف . . أنا لا أستطيع أن أحمل هذا الحمل الثقيل ، فيأتى واحد أقوى منى لا ليعطينى قوته لأفعل بها ، بل ليحمل هو بقوته معى . فهو يعدى لى أثر قوته فقط ، وقوته باقية . . لا تقوى على أن يعطينى قوة .

ولكن الحق سبحانه لا يعدى أثر قوته فحسب ، وإنما يجعل الذى لا يقوى بمجرد الفعل . . قال : ادعهن أنت يا إبراهيم . . فالعظمة فى أن أجعلك بدعوتك يستجاب لك ، فتأتيك الطير حية .

إذن ذلك هو الإيمان . . والإيمان المطلوب إنما هو إيمان مارس الاطمئنان بالقضية ، لا أن يكون قد مارس الاطمئنان إلى الكيفية . . فحسب كل كيفية أن تنسب إلى ربها . . فالكيفيات محصورة فى قانون الأحداث . . فى قانون الحوادث . . فى قانون المخلوقين .

والساحر الذى يقف ويخيل للناس عندما تقول له : اشرح لى ما تعمل . لا يستطيع أن يشرح لك حتى يعطى الكيفية التى يخيل بها للناس أن هذه حقائق أمامهم .

إذن فإذا كانت كيفيات البشر مما يتعذر أن تنقل إلى بشر مثله فالكيفيات التى يزاول بها الله سلطانه فى ملكه أشد تعذراً واستعصاء على العقل البشرى ولذلك كان الجواب تطبيقاً عليها .

الإيمان حين يوجد يورث الاطمئنان ، ويبقى الإنسان فى حياته بكل الطاقات الممنوحة له من الله . . فالحياة أنواع متقابلات . . هناك القوى

والضيف ، والقادر والعالم والجاهل ، والخير والشر ، فلو لم يكن الإنسان فى هذه الدنيا مستند إلى رصيد قوى من إيمانه بالله ، وأن الله هو الوجود والحق ، وما عنده وجود مقيد ، والموجود الحق هو الموجود لذاته ، أما وجود كل العالم ، أى ما سوى الله سبحانه وتعالى فوجوده لغير ذاته ، وعلى التحقيق لا وجود له ، وما دام على التحقيق لا وجود له ، لأنه أثر من آثار الفاعل الحق ، إذن فالفاعل الحق الذى يدير أحداث الكون هو الذى يجب أن تعتقد أنه الفاعل الحق لكل شىء .

فإذا كنت ضعيفاً فلن يستعبدك قوى ، وإن كنت فقيراً كذلك ، إن كنت فى أى مظهر من مظاهر الضعف فلا تعتقد أن القوى يستطيع أن يعطيك منها شيئاً حين تعلم أن الفاعل الحق هو الله .

إذن فالناس كلهم فى عين الله سواء ، لا فضل لقوى على ضعيف ، ولا لغنى على فقير ، وإذا عرفت أن الفاعل الحق هو الله فأحداث الحياء لا يمكن أن تهزك أبداً .

حين يجرى عليك شر مما تعرف أنه شر فى قانونك ، فاعلم أن مجريه عليك هو الله ، وأنت صنعة الله ، وما دمت أنت صنعة الله ، فلا يوجد صانع يحطم صنعته ، وإنما يعمل فيها بالإصلاح ، فلابد حينئذ أن تعلم أن ذلك الشر إنما جاء الخير .

أنا بقانونى أقول إنه شر ، وإنما مراد الله فيه خير . . وما دام الإنسان يعتقد هذا ، إذن فسيعيش بكامل رجولته ، وكل إنسانيته ، لاتتزعزع أمام حدث ، ولا يرهب شيئاً ، ولا يخاف ، لأنه يعلم أن الواجب الحق هو الله سبحانة وتعالى .

هات مجتمعاً من المجتمعات ، وطبق فيه ، فحين تجد مجتمعاً مطبقاً فيه هذه ، فستجده مجتمعاً متكافئ النفسيات ، وإن لم يكن متكافئاً فى مظاهر القوى . .

ليس المطلوب أن تتكافأ مظاهر القوى ، لأن مظاهر القوى إنما وجدت وسائل إيضاح فى البشر . . قوة تتعدى . . تنتقل من هذا . . فيصير

القوى ضعيفاً ، ويصير الضعيف قوياً ، حتى أعلم أنه لا قوة تعزنى ، ولا ضعف يهزنى ، وكذلك الغنى والفقر ، وكل صور الحياة .

إذن فما دام الإنسان لا يرغب إلا من الله ، ولا يرهب ظاهرة من ظواهر الكون أبداً ، فسيظل بكامل إنسانيته :

﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فاتكُم ولا تَفْرحُوا بِما آتَاكُمْ ﴾ (١) .

هذا الإيمان لا يوجد إلا بعد وجود العلم بالمؤمن به . .

* * *

الإيمـــان والعلــم :

هل يوجد الإيمان أولا ثم يكون العلم ؟ أم العلم أولا والإيمان ثانياً ؟

لابد أن نعلم أن هناك إيمان القمة . . وإيمان القمة يعنى إيمانك بأن هذا الكون له إله واحد ، له كل صفات الكمال المطلق ، وأنه هو الموجود الحق ، وأنه هو الفاعل الحق ، وبعد ذلك إذا آمنت به أعلم عنه يعلمك منهج حياتك ، ونظام دنياك .

إذن فالعلم المتأخر عن الإيمان هو علم المنهج . . أما العلم المتقدم على الإيمان فهو علم قمة الإيمان . . فما هى قمة الإيمان ؟ قمة الإيمان هى وجود إله . ولا يمكن أن تدخل على الإيمان بدون علم ، ولذلك يقول الحق :

﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّه لا إلٰه إلَّا هُو والملائِكَةُ وأُولُوا العِلْمِ ﴾ (٢) .

لم يقل : وأولوا الإيمان . لماذا ؟ لأن الإيمان لا يثبت إلا بعلم ، علم أن الله واحد ، إذن فالذى يقول : الإيمان قبل العلم مثل الرجل الألمانى الذى قال : « أنا لست فى حاجة إلى المعرفة لأومن ، وإنما أنا فى حاجة إلى الإيمان لأعرف » . نقول له : كلامك صحيح فى ناحية ، وخطأ فى ناحية أخرى

لأنه لابد من المعرفة الأولى بواحدانية الواحد ، وبعد ذلك إذا آمنت به فقد أراحك وعرفك هو ، لأن قصارى ما تعلمه من ظواهر الحياة ، أما

(١) سورة الحديد ، آية : ٢٣ .

(٢) سورة آل عمران ، آية : ١٨ .

ما غاب عنك من أسرار الكون فلن تعلم عنه شيئاً ، وسيظل علمك مقصوراً على نشاطك الذهنى فى تجاربك . . كلما عملت نتيجتها ، لكن الحق يخبرك عن أشياء لا تحسها ، وأشياء لا تدخل فى تجاربك ، ولا فى معملك .

كل الغيبيات التى أخبرنا الحق بها ، أكان من الممكن أن نصل إليها بنشاطنا الذهنى ؟ لا يمكن . . إذن هو فى حاجة إلى الإيمان بالله ليعرف عنه ما غاب عن حسه ، ليعرف ما ادخر له بعد هذه الحياة .

وإلا فأى عاقل يصدق أن الكون كله بواقعه المسخر لذلك الإنسان الذى قد لا يعيش من عمره إلا عاماً ، أو لا يعيش إلا يوماً ، أو قد يولد ويموت فى ساعتها هذا الكون الواسع العريض العميق مخلوق لذلك الإنسان الذى قد يمر بالكون لحظة عابرة .

هل ما خلق لى يكون أثبت منى ؟ السموات والأرض والجبال أثبت مما خلقت له السموات والأرض والجبال ؟

إذن فلا بد من اعتقاد أن هناك حياة ثانية ، وأن هذه الحياة معبر للحياة الثانية ، وأن قيمة الإنسان فى أنه يؤسس حياته المقبلة . وليست قيمته فى تأسيس الحياة الفانية ، لأنها مظنوظة غير متيقنه ، والأخرى متيقنة غير مظنونة .

* * *

الإخلاص فى العقيـدة :

ما معنى الإخلاص ؟ الإخلاص أنه كانت هناك أمور مشتبكة ، وأنت تخلص بعضها من بعض . . فالإخلاص فى العقيدة يعنى أن اشتراكاً حدث فى مسألة الألوهية ، والإخلاص يخلص الإله الحق من الإله الباطل . . الإخلاص لتخليص تصور المؤمن للإله الحق من الإله الباطل ، ولعزل جواهر الفساد من جواهر الخير ، وحين نعزل جواهر الفساد من جواهر الخير ، يتجه الإنسان إلى مضمون الفائدة .

لأنه إذا خلق آلهة غير حق ، وأشفها الهوى فى النفس ، وأكثفها الأصنام ، فماذا يجدى الهوى على الإنسان ، وماذا يجدى الصنم ؟

إذن الإخلاص فى التوحيد ، أو تخليص جوهر الإله الحق من جوهر الآلهة الفاسدة . معناه أنه أراحك من هذا الاختلاط وهذا الامتزاج الذى لا ينفعك فى شىء ، بل يضرك ولا ينفعك أن تشرك مع الإله الحق آلهة باطلة ، لأنه بمجرد أن تشرك مع الإله الحق آلهة باطلة يقول الحق : « أنا أغنى الأغنياء عن الشرك ، فمن أشرك بى شيئاً فهو لشريكى » . وعليه فلا يأخذ الإنسان من خير الله ما دام قد أشرك معه غيره .

والإخلاص حين يوجد فإن الإنسان يتوجه فى مراداته إلى من يقيده بالقطع ولذلك يقول الحق : « الإخلاص من أسرارى ، أودعه قلب من أحببت من عبادى ، لا يطلع عليه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده » .

وما دام الإخلاص موجوداً فستتجرد فكرة التوحيد حتى عن شبهته الأسباب المخلوقة لله أيضاً لأن الفساد إنما جاء على كثير من العابدين فى الديانات السابقة على الإسلام حينما فتنوا بقوة بعض الأسباب ، فظنوا لها قوة ، وغفلوا عن أن قوتها مخلوقة لله ، وأن المسببات تنشأ معها لا بها ، فغفلوا عن خالق السبب ، وذهبوا إلى السبب فى مظهر من مظاهر قوته .

فكأن المؤمن حين يلتفت إلى الأسباب على أنها فاعلة لا يكون مخلصاً دينه لله .

وآفة البحث هو الفلسفة القديمة ، إذ قال الفلاسفة القدامى : نؤمن بالله ، ولكننا نؤمن بأنه خلق القوانين والأسباب ، ثم ترك للقوانين والأسباب أن تفعل . فكأنهم يعنون بذلك أن الله زاول سلطانه فى ملكه مرة واحدة ، فخلق الأسباب ، ثم تركها تفعل ، فصارت آلية .

نقول لهم : الأسباب قد تكدى ولا تجدى ، ولو كانت نافعة بذاتها لما أكدت ، ولما أخطأت الآلية . . وفى الواقع نحن نرى الأسباب توجد ولا توجد نتائجها ، وترى النتائج بدون أسباب ، كالمعجزات التى أجراها الله تعالى على أيدى رسله .

إذن فمن قمة الإخلاص أيضاً ألا يلتفت الإنسان إلى الأسباب ، ولو كانت مخلوقة لله ، وينشغل بها عن المسبب وهو الحق سبحانه وتعالى .

* * *

الوحـــدانية :

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لَوْ كانَ فِيهِما آلِهةٌ إلَّا اللهُ لَفَسدَتَا ﴾ (١) .

إذن كون السماء والأرض لم تفسد دليل على أنه لا إله مع الله . . ولو لم توجد هذه العقيدة لما قامت السموات والأرض .

﴿ إنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمٰواتِ والأَرْض أَنْ تَزُولَا ولَئِنْ زَالَتَا إنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ (٢) .

فقول الحق : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ يسمونه دليل التمانع ، ومعنى دليل التمانع : أن يضع الحق سبحانه قضية لا على طريقة المناطقة . والمناطقة حين يصنعون قياساً يأتون بقضيتين : القضية الأولى يسمونها الصغرى ، والثانية يسمونها الكبرى ، وإن كانت فى الشرط يسمونها مقدماً . يقولون : الإنسان حيوان هذه قضية . وكل حيوان متحرك ، الوسط يعنى نهاية القضية الأولى وبداية القضية الثانية مكررين . نحذف المكررين ، فينشأ (الإنسان متحرك) .

هذا قياس منطقى من الشكل الأول . . لكن الحق حين يأتى بالقياس لايجىء به على منطق أرسطو ، إنما يجىء به على منطق أقوى من ذلك ، لماذا ؟ لأن منطق أرسطو يأتى بقضيتين : صغرى وكبرى ويحذف المكرر ، وبعد ذلك يأتى بالنتيجة من الباقى من المقدمتين .

---

(١) سورة الأنبياء ، آية : ٢٣ .

(٢) سورة فاطر ، آية : ٤١ .

لكن الحق لم يفعل ذلك فى كل براهينه ماذا قال الحق ؟ قال ﴿ لوكان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ . كان يجب لاستكمال القياس أن يقول . ولكن الفساد ممتنع ، فامتنع تعدد الآلهة ، وهذا يسمونه دليل التمانع .

لقد طرح الحق قضية واحدة ، وترك للسامع أن يجيء بالقضية الثانية على وفق ما يرى ، لقد قال : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ : فانظر أيها السامع هل تجد فساداً فى السموات والأرض ؟ إن وجدت فساداً فقل ، كأنه موقن أن الجواب لايكون إلا (الفسا ممتنع) . وحينئذ تجيء أنت بالتالى .

جاء الله بالمقدم فى الأولى ، وتجيء أنت يا مخاطب وياسامع بالتالى ، فكأنه لم يترك القضية الثانية إلا ليقينه أن العقل إذا خلا ليجاوب على هذا فسيقول : الفساد ممتنع .

مادام الله قال : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ . وأنت ستقول بحكم شهادة الواقع : ولكن الفساد ممتنع . إذن فالنتيجة : تعدد الآلهة ممتنع .

والنتيجة التى وصلنا إليها لم تكن من قول الحق كلها ، ولكن المخاطب شارك فى بناء القياس ، فإيمانه بالنتيجة أقوى من أن يكون هو الذى أتى بقضيتى القياس من عنده .

بقى أن نقول : إن القضية الأولى تحتاج إلى تدليل ﴿ لَو كَانَ فِيهما آلِهةٌ إلَّا الله لَفَسدَتا ﴾ كيف ؟

هناك عند الفلاسفة وأهل الكلام شيء اسمه الضدان ، وشيء اسمه النقيضان . ماهما الضدان ؟ وما هما النقيضان ؟

قد يبدو لأول وهلة أن المعنى متفق ، وأن الضد هو النقيض ، ولكن الضدين أمران لايجتمعان أبداً ، ولايتفقان أبداً ، يعنى لابد أن يوجد واحد منهما . . فمثلا : ساكن ومتحرك . كل شيء لايخلو عن كونه ساكنا أو متحركاً ، ولا يمكن أن يجتمعا فيكون الشيء ساكناً ومتحركاً

فى آن واحد ، ولا يمكن أن يرتفعا فيكون الشيء لاساكناً ولا متحركاً .
فلا بد أن يكون واحد منهما موجوداً ، فالضدان لايجتمعان ، إن ثبت السكون انتفت الحركة ، وإن ثبتت الحركة انتفى السكون . ولا يرتفعان أبداً ، فلا يخلو جسم عن واحد منهما .

ولكن النقيضين لايجتمعان ، ولكنهما قد يرتفعان ، فأبيض وأسود ، مثلا ، الأبيض والأسود لايجتمعان فى مكان واحد ، فشاركا الضدين فى أنهما لا يجتمعان . ولكن النقيضين قد يرتفعان معاً ، ويجيء لون أحمر .

إذن فالضدان فى الشيء ذى القسمين : الشيء الذى ليس له إلاوجهان هذا أو هذا . . أما النقيضان فنى الشيء ذى الأقسام الكثيرة ، فالألوان عندنا كثيرة فإذا كان هناك لونان متناقضان ، فلا مانع من حذفهما ، ليجيء لون ثالث ، أو رابع أو خامس .

وفى تعدد الآلهة ، يمكن أن يختلفا ، ويمكن أن يتفقا .. فإن اختلفا ، وأراد الله أن يخلق هذا ساكناً ، وأراد الإله الآخر أن يخلق هذا متحركاً ، والشيء ولا يكون ساكناً ومتحركاً فى وقت واحد ، بل لا بد أن يبقى على حالة واحدة ، إذن لابد أن توجد حالة منهما ، فثبت مراد إله منهما ، ولم يثبت مراد إله آخر ، لأن الضدين لايجتمعان معاً ، ومرادهما معاً لاينفذ أبداً .

إذن فلا بد من نفاذ مراد واحد منهما ، إما أن يوجد الشيء على هيئة الحركة ، و ما أن يوجد على هيئة السكون ، وهنا يقف الإله صاحب خلق السكون عاجزاً أمام الإله خالق الحركة ، وإله متصف بالعجز فى أى مظهر من مظاهر الإيجاد لايصلح أن يكون إلهاً .

وإن اتفقا على أن يكون كل واحد منهما فى منطقة نفوذ ، أو يكون العمل لواحد ، والآخر يوافق ، أوعلى أن يباشر العمل هما الاثنان . . مباشرة العمل لهما هما الاثنان تحصيل حاصل . . ولو أن هذا أخذ جانباً ، وذاك أخذ جانباً ، فالذى أخذ جانباً قادر فيه ، والذى لم يأخذ ذلك الجانب عاجز فيه . . فثبت العجز فى الآلهة ، وهذا مستحيل .

إذن المسألة سواء كان بالاتفاق أو بالاختلاف لايصح أن يكون لله شريك ، وقضية إثبات الإله الواحد هى التى شغلت الأديان كلها ، وليست قضية إثبات الوجود لله ، فثبوت الوجود أمر فطرى ، ولذلك لم يشغل القرآن حيزاً لإثبات وجود الله إنما كل الكلام فيه : أ إله مع الله ؟ لماذا ؟

﴿ ولَئِنْ سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّمٰواتِ والأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ (١) .

إذن الفطرة مجمعة على أنه لايمكن أن يوجد هذا الكون بدون إله ، هذه قضية فطرية ولذلك عرضها القرآن عرضاً فى قضية واحدة فقال :

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَىءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ ﴾ (٢) .

أخلقوا من غير شىء ؟ هذا لايقوله العقل .

أم هم الخالقون ؟ هذا لم يدعوه .

إذن لم يخلقوا من غير شىء ، لأنهم خلقوا من شىء . . وهم لم يدعوا أنهم خلقوا ، إذن فالدعوة تظل لصاحبها إلى أن يأتى واحد ويقول : أنا الذى خلقت ، إلى أن يوجد الإله الذى يقول : أنا الخالق ، والله أخذ منى الخلق وادعاه لنفسه ، يظل الأمر لله وحده .

ولعل إنساناً يظن أن الشمس أو النجوم أو الكواكب أو الصخر أو أى مظهر من مظاهر القوى يظن أن له فاعلية قد تكون فاعلية السببية ، ولكنه ينفى السبب وينزل إلى المسببة .

إذن فقضية التوحيد هى الأساس الأصيل فى مناقشة العقيدة ، ولذلك كلها : أ إله مع الله ؟ أ إله مع الله ؟ أ إله مع الله ؟

---

(١) سورة لقمان ، آية : ٢٥ .

(٢) سورة الطور ، آية : ٣٥ .

التنزيه والتشبيه

التنزية والتسبيح

أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم وكل من تبعه بتسبيح الخالق فى مواضع كثيرة من القرآن ، والتسبيح هو : التنزيه . والتنزيه : أن يوجد شيء لم يوجد له نظير فى الشكل ، أو نظير فى الجملة ، فتتوهم أن هذا يساوى هذا . فقول : لا . هذا ليس من الطبيعة ، يعنى لله وجود ، ولخلقه وجود ، لكن نزه وجود الله عن وجود الناس ، لأن وجود الناس عن عدم ، ووجودهم إلى عدم ، ووجود الحق لا عن عدم ولا إلى عدم .

إذن فصفة الوجود قدر مشترك ، إلا أنك نزهت الحق سبحانه وتعالى إن وجد وصف فى مخلوق فإنه يساوى وصفه فى شكلية اللفظ .

ولما نزلت آية : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ (١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اجعلوها فى سجودكم » . . فصارت : سبحان ربى الأعلى .

وقد جاء القرآن بالحيثية الأولى ، وهى أنه أعلى . ومعنى التنزيه هنا : أنك تنزه الأعلى أن يكون مثل الأدنى .

هو أعلى ، وليس عال ، لأن عال هذا وصف وصف به بعض خلقه ، فقال الحق حين تكلم مع إبليس :

﴿ أَسْتَكْبَرتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ العَالِينَ ﴾ (٢) .

والعالون من الملائكة هم المهيمون فى الله ، لايعرفون إلا الله ، وليست عندهم معلومات أخرى .

* * *

---

(١) سورة الأعلى ، آية ١٨ .

(٢) سورة ص آية : ٧٥ .

التنزيه انسجام مع الوجـــود :

التسبيح ورد فى القرآن بأساليب شتى ، لكن فى بدايات السور التى هى الاستهلاليات ﴿ سبحان ﴾ هذا تسبيح الذات للذات ،ثم جاء ﴿ سبح ﴾ بالماضى فى قوله :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمٰوٰتِ والأَرْضِ ﴾ (١) .

إذن فالتسبيح ثابت قبل أن يوجد المسبحون ، ولما خلق المسبح سبح ، وهل سبح وانقطع التسبيح ؟

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِى السَّمٰوٰتِ وما فِى الأَرْضِ ﴾ (٢) .

إذن فيا أيها الإنسان الذى تريد أن تعيش فى منهج ربك لاتشذ عن نغم الوجود فى التسبيح .

مادام ﴿ سبحان ﴾ الله ، ومادامت السماء والأرض وكل المسخرات سبحت ، ومادام تسبيحها مستمراً ، فلا يكن تمييزك عن سائر المخلوقات بالفكر مانعاً لك من أن تشترك مع الكون كله فى نغم التسبيح .

سبح اسم ربك لئلا تكون شاذاً ، لئلا تكون الحيثية التى أعطيت لك وهى الزيادة بالفكر عائقاً لك من أن تكون مع من هو أدنى منك ، لاتشذ ، لاتكن نغمة شاذة فى الوجود ، ومعنى نغمة شاذة فى الوجود : أن الوجود كله مسبح ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا يُسبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكنْ لَاتَفْقَهُون تَسْبِيحَهُم ﴾(٣).

نحن نعلم التسبيح على لغتنا بلغة وصوت . ولكن الله قال : الأداء لايشترك فيه الصوت ، لأنك قد تعمل الأداء بدون صوت ، وبدون حركة .

حينما يكون هناك أداء صوتى من فصيلة اللغات ، وبعد ذلك جئت قوم يتكلمون لغة غير لغتك ، أتفهم عنهم ؟ لا .

---

(١) سورة الحديد ، آية : ١ .

(٢) سورة الجمعة ، آية : ١ .

(٣) سورة الإسراء ، آية : ٤٤ .

إذن فالصوت فى ذاته لايفهم إلا بالتواضع على معناه ، ومادمت لاتفهم التواضع على المعنى المراد ، فيستوى أن يوجد صوت أولا يوجد .

إن لكل كون لغته ولكل جنس لغته التى يتفاهم بها ، والتى يسبح بها ، وإذا كنت أنت لاتعرف ذلك فليس بدعة ، لأنك تسمع أصواتاً هى شريكة أصواتك اللغوية فى مخارجها ، ولكن مؤداها الوصفى لاتفهم منه شيئاً .

فإذا قرأنا قول الحق سبحانه :

﴿ وسَخَّرنا مَعَ داوُدَ الجِبالَ يُسَبِّحْنَ ﴾ (١) .

فلا تقل : هذا تسبيح دلالة ، لأن بعضهم يقول : إن التسبيح تسبيح دلالة على الخالق ، وعلى هذا فأنت تدعى أنك فهمته ، ولكن الذى خلقك وعلمك قال :

﴿ ولَكِنْ لا تَفْقَهُون تَسْبِيحَهُم ﴾ (٢) .

إذن فهو ليس تسبيح دلالة ، لأنه لوكان كذلك كنت فقهته ، والله يقول : إنك لاتفهمه . إنه تسبيح أدائى .

﴿ يا جِبالُ أَوِّبِى مَعَه والطَّيْر ﴾ (٣) .

معنى ﴿ أوبى معه ﴾ ارجعى إلى الله معه .. إن الجبال تسبح مع غير داود أيضاً ، ولكن ميزة داود أن الحق أفهمه لغة ذلك الجماد ، فجعل تسبيحه يوافق تسبيح الجماد .

ونخلص من هذا كله إلى أن القرآن أمرنا بالتسبيح فى صورة أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكأن الله تعالى يقول له : يا محمد ، كن مع الوجود كله منسجماً معه ، وأنا بعثتك لتعيد انسجام الإنسان مع الوجود ،

---

(١) سورة الأنبياء ، آية : ٧٩ . (٢) سورة الإسراء آية ٤٤ .
(٣) سورة سبأ ، آية ١٠ .

فلا يصح أن تكون نعمة العقل سبباً صادقاً ، بل يجب أن تكون سبباً داعياً ، فلا تجعل الإنسان يشذ عن ذلك الكون ، ويخرق ذلك النغم .

* * *

التنزيه واشتقاق اللغـة :

التسبيح أو التنزيه هو الأساس العقدى ، ولو نظرت إلى معنى مادة التسبيح فى القرآن لوجدناها من سبح . ومعنى سبح كما نعرف : طفا على الماء . يعنى أن ثقله لم يخلده إلى هوة القاع ، فالسبح لون من تعالى الحركة على القانون العشرى فى جذب الأشياء للقاع . وإذا نظرت إلى هذا المعنى وجدته هو المعنى المطلوب فى سبح ، فالمادة واحدة .

سبح يعنى استعلى بربه ، كل شىء تعرفه عن الحادثات فاعلم أن ربك فوقه ، كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك ، هذا هو معنى اللقاء بين سبح اسم ربك ، وسبح السابح .

ومنه السبح للفرس الذى يجرى جرياً مستوياً ، فأنت حين تركبه كأنك سابح ، قال الشاعر :

* سبوح لها منها عليها شواهد *

أى إنها حين تسير كأنها سابحة . فالمادة كلها مادة الاستعلاء .

وإذا استعرضنا المادة فى منطق القرآن نجدها تناولت أنواعاً شتى من الاشتقاق ، ومعنى الاشتقاق : أن آخذ كلمة من أخرى ، فالمأخوذ منه أصل ، والمأخوذ فرع ، يتشكل المأخوذ من المأخوذ منه بموضوع أخذه .

فمثلا كلمة (الضرب) هذه مصدر . تشتق منها (ضرب) يعنى حدث فى زمن ماض ، (يضرب) فى زمن مستقبل (ضارب) ضرب حادث (مضروب) وقع عليه الضرب . (مضرب) مكان الضرب .

فإذا نظرنا إلى هذا المعنى فى كلمة (التسبيح) وجدنا أن أصل المشتقات على ما انتهى إليه العلماء هو المصدر . فلا يوجد الفعل (ضرب) إلا إذا

كان فى ذهنى معنى الضرب ، وكان الضرب حقيقة معروفة لى ، وعلى هذا فالمصدر هو الأساس فى الاشتقاق .

على هذا الضوء إذا استعرضنا السور القرآنية التى استهلت بهذه المادة ، وجدنا أن أول سورة استهلت بها هى سورة الإسراء :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ (١) .

جاء بالمصدر .

ومادام يستهلها بالمصدر الذى هو أصل ، فكأن التسبيح ثابت لله ، التنزيه ثابت لله أصالة قبل أن يوجد من ينزهه ويسبحه ، مثلما قال :

﴿ شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُو ﴾ (٢) .

فكأنه شهد لنفسه بالوحدانية قبل أن يوجد شاهد آخر . فكذلك التنزيه ثابت لله ، وبعد ذلك يوجد من ينزه .

وفى أول سورة الحديد ، وأول سورة الحشر ، نجد أنه تعالى استهلهما بالفعل الماضى ، فقال تعالى :

﴿ سَبَّح لِلّهِ مَا فِى السَّمٰوٰاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (٣) .

ومرة يقول : (سَبَّحَ لِلّهِ ما فِى السَّمٰوٰاتِ وما فِى الأَرْضِ) (٤) .

وهل سبح وانتهى التسبيح والتنزيه ؟ لا ، بل جاء فى سورة الجمعة ، وسورة التغابن فقال :

﴿ يُسَبِّح لِلّهِ ما فِى السَّمٰوٰاتِ وما فِى الأَرْضِ ﴾ (٥) .

إذن جاء بالأصل الاشتقاق فى سورة الإسراء ، وبالماضى فى سورتى الحديد والحشر ، وبالمضارع فى سورتى الجمعة والتغابن ، ولم يبق من

---

(١) سورة الإسراء ، آية : ١ .
(٢) سورة آل عمران ، آية ١٨ .
(٣) سورة الحديد ، آية ١ .
(٤) سورة الحشر ، آية ١ .
(٥) سورة التغابن ، آية ١ .

الزمنية فى الاشتقاق إلا فعل الأمر ، فاستّهل به سورة الأعلى :

(سَبِح اسْم ربِّكَ الأَعْلَى) .

وهنا استوعب كل الحالات والأزمان ، فجاء بالمصدر ، وبالماضى ، وبالحال والمستقبل ، وطلب منك ألا تشذ عن الوجود ، فتعمل عمل الوجود ، وتسبح دائماً بفعل الأمر .

وهناك شيء آخر ، حينما يأمر الحق بالتنزيه والتسبيح نجده أحياناً يأمر بالتسبيح ، ولكنه لايذكر المسبح [بتشديد الباء وفتحها] كما فى قوله :

﴿ ومِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وأَطْرَافَ النَّهارِ ﴾ (١) .

سبح ماذا ؟ لم يقل : لا سبح ربك ، ولا سبح اسم ربك ، ولا سبح بحمد ربك ، لم يقل شيئاً . فلماذا ؟

فكأن الحق يلفتنا بذلك إلى أن كلمة التسبيح إذا أطلقت فلا يمكن أن تكون إلا لتنزيه الحق سبحانه وتعالى . فهى مفروضة بمادتها . . فإذا قيل : سبح ، فليس ضرورياً أن يقول لك سبح من ؟ كلمة سبح هذه توحى بأنه لايوجد غيره سبحانه وتعالى .

* * *

علاج الغفلة فى البشر :

أحياناً يحذف المتعلق وهو المفعول مثلا ليدل على أنه متعين ، ولا يمكن للعقل أن يوجد له شريكاً . . فالمعنى المتعين أن ذهنك لايذهب إلى أن التنزيه أو التسبيح سيتجه إلى أحد غير الله .

ولكن الإنسان قد يتجه إلى الأسباب اتجاهاً خفياً ، فقد يجرى على يد الإنسان عطاء لإنسان ، ولأنه السبب المباشر فقد يتعلق به ، ويكون عنده

---

(١) سورة طه آية : ١٣٠ .

اثنان : الله الرزاق ، والعبد الذى هو السبب . . ولذلك حين نكلم إنساناً يقول لك : أنا معتمد على الله ثم عليك . لم يطاوع نفسه ويقول : أنا معتمد على الله ، ولا يجىء بثم عليك ، لسبب احترام الأسباب المادية فى أذهان الناس .

ولو أنه استشعر كيانه الحقيقى لاستشعر بأن الله هو الفاعل للأسباب والمسببات ، وبلا أسباب ومسببات ، وقال : أنا معتمد على الله .

ولهذا فقد احترم الحق هذه الغفلة من الإنسان ، وجاء له بالمتعلقات ، فجاء مرتين بكلمة ﴿ سبح ﴾ بدون متعلق، ثم يجىء بالمتعلق فى كل الأوامر بعد ذلك . لكن مرة يجىء بالمتعلق هاء الغائب :

﴿ ومِنَ اللَّيلِ فسبِّحْهُ وأَدْبارَ السُّجُودِ ﴾ (١) .

﴿ ومِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وإِدْبارَ النُّجُومِ ﴾ (٢) .

ومِن﴿ اللَّيْلِ فاسْجُد لهُ وسبِّحهُ ليْلاً طوِيلاً ﴾ (٣) .

ثلاث آيات ذكر فيها ضمير الغائب ، ونحن نعرف أن ضمير الغائب لا بد أن يكون قبله مرجع يرجع إليه ، تقول : لقيت زيداً فأكرمته . فالهاء ترجع إلى زيد ، وبالمرجع أصبح الضمير معرفة .

ولكنك إذا جئت بالضمير بلا مرجع كما فى قوله : ﴿ ومن الليل فاسجد له وسبحه ﴾ فإن مرجع ضمير الغائب لابد أن يكون فى ذهن المؤمن ، متعيناً ، لأن لا يوجد غيره يستحق التسبيح والتنزيه فكأنه أيضاً متعين المرجع .

إذن ساعة ما أنظر إلى مرجع الضمير أرى ، هل مرجع الضمير

---

(١) سورة ق آية ٤٠ .

(٢) سورة الطور آية ٤٩ .

(٣) سورة الإنسان آية ٢٦ .

متعين ؟ فإن كان مرجع الضمير متعيناً بأصل الاشتقاق ، وأصل الاستعمال الإيمانى ، فالضمير لايحتاج إلى مرجع هنا ، فى قوله تعالى مثلا :

﴿ ومِنَ اللَّيْل فاسْجُد له وسبحهُ ﴾

لايسجد إلا لواحد ، ولا يسبح إلا واحد ، فكأن هذه الحقيقة قائمة مقام مرجع الضمير .

* * *

تنزيه الاسم وتنزيه الحمـــد :

ويذكر القرآن التنزيه والتسبيح بأسلوب آخر فيقول مرة :

﴿ سبِّح اسمِ ﴾ ومرة أخرى يقول : ﴿ فسبح باسم ﴾ .

﴿نَحْنُ جعَلْنَاها تَذكِرةً ومَتَاعًا للمُقْوِين *فَسبِّح باسْمِربِّك العظيمِ﴾(١)

لم يقل : فسبح اسم ربك العظيم كما فى سورة الأعلى .

وجاء التسبيح على هذه الطريقة الأخيرة مرتين أخريين فى القرآن .

﴿ إنَّ هٰذا لَهُو حَقّ اليقينِ * فسبِّح باسْمِ ربِّك العظِيمِ ﴾ (٢) .

﴿ وإنَّه لحسْرةٌ علَى الكافِرِين * وإنَّهُ لَحقُّ اليقِين* فَسبِّح باسْمِ ربِّكَ العَظِيمَ ﴾ (٣) .

فادة التسبيح مع الاسم ذكرت مرة واحدة متعدية بنفسها ، ﴿ سبح اسم ربك ﴾ وثلاثة مرات متعدية بحرف الجر ﴿ فسبح باسم ﴾ .

ما الفرق بين ﴿ سبح اسم ﴾ و ﴿ سبح باسم ﴾ ؟

---

(١) سورة الواقعة ، آيتا ٧٣ ، ٧٤ .

(٢) سورة الواقعة آيتا ٧٥ ، ٩٦ .

(٣) سورة الحاقة ، الأيات ٥٠ — ٥٢ .

التسبيح تنزيه ، وحين أقول : ﴿سبح اسم ربك﴾ يعنى : نزه ، وحين أقول : ﴿فسبح باسم ربك﴾ فالمعنى : نزه أيضاً ، لكن التنزيه هنا بأمر ربك ، لأنه هو الذى يعلم ذاته . مثلما أقول : أنا أحكم باسم الله ، أو باسم الشعب ، أو باسم القرآن ، أو باسم الدستور . فكأن حيثياتك فى الحكم مصدرها هذا .

فكأن سبح هنا معناها : نزه ، لكن التنزيه ليس تطوعاً منك ، وليس حكماً من بشريتك ، يعنى المخلوقية ، على الخالق ، إنما هو بتوجيه الله ، لأنه أعلم بذاته ، فأنت حين تسبح وتنزه تفعل ذلك لأن من تعلم ذاته هو الذى أمرك .

ومرة أخرى لايقال سبح اسم ، ولا سبح باسم ، ولكن يقال : سبح بحمد ربك :

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ ربِّكَ وكُنْ مِنَ السَّاجِدِين ﴾ (١) .

﴿ فسبِّح بِحَمْدِ ربِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّابًا ﴾ (٢) .

نقول : نعم ، لأن التسبيح تنزيه ، وقلنا : إنه من الله ، وليس تطوعاً منى ، وقد يكون التنزيه تنزيه تسلط وجبروت ، مجرد عن الرحمة ، قال : ألا ، إن الذى أمرك أن تنزهه يعطيك مالا يعطيه مخلوق ، ونعمه التى يجريها عليك لاتشابهها النعم التى يجريها المخلوق على المخلوق ، فأنت لاتنزهه على أنه طراز عال ، صحيح هو طراز عال ، ولكن ليس استعلاء عليك ، بل الطراز العالى لصالحك ولنعمك ، فحين تسبح لاتسبح على أنه تنزيه سلطة ، فهذه السلطة تقهرك على أمور ، لا ، إنه منعم عليك بأمور ، ولذلك يجب أن تسبح تسبيحاً مقروناً بالحمد .

---

(١) سورة الحجر آية ٩٨ .

(٢) سورة النصر ، آية : ٣ .

إذن هو تنزيه الله لنعمتك أنت ، فحين يكون الله منزهاً عن الخلق ، وليس فى خلقه مساو له فى أى شىء ، فاعتمادك حينئذ ليس على النظير ، ومادام اعتمادك ليس على النظير ، فهذه نعمة ، وهذه النعمة يجب أن تستقل بالحمد ، ولذلك يقول العلماء : سبحان الله وبحمده . يعنى : أنا أنزه الله وأحمده على أنه علمنى أن أنزهه ، لأن تنزيهه عن خلقه نعمة إلى ، لأن الخلق أغيار ، ويمكن أن تكون نعمة لله يحجبها عنى الأغيار ، فمن رحمته أنه منزه عما يكون فى نفس البشر ، فأنت حينما تنزه الله يجب أن تستحضر أن نعم الحق أولها عليك أنه منزه عن سائر الخلق .

ولذلك لما عرض القرآن هذه القضية قال :

﴿ قُلْ لوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى إذًا لأَمْسَكْتُم خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ وكانَ الإنْسَانُ قَتُورًا ﴾(١) .

يعنى : من رحمتى بكم أنى لم أجعل مصالحكم فى يد بعضكم البعض بل جعلت مصالحكم عندى ، وأنا منزه عن الأغيار . . فالإنسان قد يكون عاصياً والله يديم نعمته عليه ، يذهب لعمل المعصية ويقول : ياستار . ويذهب ليسرق ويطلب الستر من الله ، حتى فى معصية الله لم يجد إلا الله .

إذن حين يقول:﴿ فسبح بحمد ربك ﴾ يعنى : نزه ، ويجب أن يكون التنزيه مقروناً بحمد الله ، لأن تنزيه الله عما يمكن أن يكون لخلقه تعود صلحته عليك ، ومادام كذلك فهو تنزيه بثمن .

* * *

التشبيه فى العقيـــــدة :

قلنا : إن من رحمة الله عليك أنه ليس شبيهاً بخلقه ، وأنه مستعل عليهم جميعاً ، وحين يقول الحق: ﴿ سبح ﴾ أو ﴿ سبحه ﴾ أو ﴿ فسبح

---

(١) سورة الإسراء الآية : ١٠٠ .

بحمد ربك ﴾ أو ﴿ فسبح باسم ربك ﴾ أو ﴿ سبح باسم ربك ﴾ . فما هو تسبيح الاسم ؟

نحن نعرف أن الاسم هو ما وضع ليدل على المسمى ، فهل أنا أسبح الاسم ، أم أسبح المسمى ؟ التنزيه فى الواقع هو للمسمى ، لكن كلمة سبح اسم أو سبح باسم جاءت لأن المسمى لايوجد بشخصه عندى ، وفى ذهنى ووجدانى الاسم ، فساعة ما يشخص المسمى فى وجدانى فالتشخيص مختلف ، تشخيص بأنه لايشخص .

ما معنى تشخيص بأنه لايشخص ؟

يعنى أنا حين أشخص فلاناً ، فالمسمى سأعطى له اسماً ، وبمجرد ما يجىء الاسم تجىء الصورة المشخصة للمسمى ، فحين أنطق اسماً من أسماء الله تعالى ، فما هى الصورة التى تتبادر إلى الذهن ؟ إنها ليست مشخصة ، ليست شخصية يعنى ليس لها سمات محدودة إلا ما وضعه لنفسه من أنه كذا وكذا .

فحين يكون مخالفاً للحوادث لا أقدر أن أتصوره بجرم وأشياء مثل المخلوقات ، فالتشخيص كيف يكون إذن ؟ يكون كما مثل ما قال عن نفسه ، لأن هذا التشخيص يأتى من المسمى للاسم ، ليعرف المشخصات ويضع لها الاسم .

فساعة ما يقول الحق سبحانه : كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك فهذا هو تشخيصه . هذا هو التشخيص الذى لايمكن أن نعمل له قالباً .

الصفات التى ذكرها عن نفسه أهلا ومرحباً بها ، لكن أنت حين تجىء للاسم وتنقل التنزيه إلى الاسم ، فهذا دليل على أن ما جعلته اسماً لله يجب أن تنزهه عن أن يكون اسماً لغيره ، حتى وإن كان من المشترك الذى يمكن أن يكون صفة لمخلوق وصفة للخالق ، لاتجعلهما سواء ، فإذا أعطانى أحد رزقاً ، لا أقول : هذا رازق لضيقة تشعر أنه هو والله سواء .

وأيضاً فإذا وجدت اسماً من الأسماء الحق سبحانه وتعالى (الغنى) وهناك واحد من الخلق نصفه بأنه (غنى) اسم الله (والعزيز) وواحد من الناس نصفه بأنه عزيز ، نقول : نعم . . إذا أطلق الغنى على إطلاقه لاينصرف إلا إلى الله ، إنما الغنى كوصف فمن الجائز أن يطلق على المخلوق .

وإذا سمعت أن الله تعالى له وجل ، وله سمع ، وله بصر ، وله يد ، فلأنك لاتعرف اليدين إلا فى هذا الشكل المخصوص ، ولا تعرف السمع إلا بهذه الآلات المخصوصة ، لانقول لك : أنت شريك ربنا فى أنه كما وجد السمع فى مخلوقه فهو موجود عنده ، لماذا ؟ لأن الأصل أنه :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ﴾ (١) .

فكل ما ورد من إطارات الأسماء أو الصفات ، ونظيره موجود فى الخلق ، فأنت تقتصر على القدر الذى وصف الله به نفسه ، وكيفيات الأشياء لاضرورة لها فى الإيمان. فالله قال : أنا سميع بصير ، فهو له سمع وله بصر ، لاتأخذ أنت من الصورة التى تعرفها للسمع والبصر فى الخلق وتقول : إن سمع ربنا وبصره مثلنا ، لماذا ؟ لأنك أنت حاكم بأن ربنا له وجود ، ولخلقه وجود ، فهل وجود خلقه كوجوده ؟ لا . . وما دام وجود خلقه ليس كوجوده ، فلماذا تريد أن تجعل سمع خلقه مثل سمعه ، أو سمعه مثل سمع خلقه ؟

إنك فى إطار أنك مخالف . . الله حى ، وإنسان حى يتكلم الآن . هل الحياة عند هذا الإنسان كالحياة عند الله ؟ لا .

إذن فإذا ورد اسم من أسماء الله تعالى ، أو وصف من أوصافه ، يوجد مثله فى البشر ، فنحن أمام أمرين :

١ — ألا تمثل .

٢ — ألا تعطل .

---

(١) سورة الشورى ، الآية : ١١ .

تعطل . أى تقول : لا ، ليس له سمع ، لأن السمع للبشر . نقول : أنت تعيش ، لأن السمع عندك له آلة ، وأنت نزهت ربنا عن ذلك ، صحيح أنت تريد أن تنزه ، إنما لماذا تعطل النص ؟ الله قال لى : إن لى سمعاً ، فأنت تأخذه على أن له سمعاً ، إنما كيفية السمع هذه ليست عملك ، ولست مطالباً بها ، وليست الكيفيات محل إيمان .

فإذا رأيت أن الحق وصف نفسه بما يمكن أن يوجد فى مخلوقه فنزه وقل : هذه ليست مثل هذه ، لأننى إن منعتها أكون قد عطلت صفة ، وإن مثلت فأنا قد مثلت الله بخلقه ، ونحن نريد ألا يكون النص معطلا ، كما نريد ألا نمثل الحق .

* * *

تنزيه الألوهية وتنزيه الربوبية :

وحينما يذكر الحق سبحانه المصدر الجامع لكل هذه المشتقات ، وهو كلمة ﴿ سبحان ﴾ فمرة يقول : ﴿ سبحان الله ﴾ فيأتى باسم الجلالة ، ومرة يقول : ﴿ سبحان ربى ﴾ ويأتى بوصف الربوبية ، ومرة يجىء باسم الموصول ﴿ سبحان الذى ﴾ .

ونحن نعلم أن ﴿ سبحان الله ﴾ عطاء الألوهية ، و ﴿ سبحان ربى ﴾ عطاء الربوبية .

﴿ قل سبحان ربى ﴾ . لما سألوه وقالوا : لن نؤمن بك إلا حين تعمل لنا كذا وكذا . أو تأتى بالله والملائكة . قيل له :

﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ (١) .

الله منزه عن أن أكون أنا مثله . هو يجىء بالآيات أو لا يجىء بها ، هذه مسألة خاصة به سبحانه وتعالى .

---

(١) سورة الإسراء : آية : ٩٣ .

﴿ وَيَقُولُون سُبْحَانَ ربِّنا إنْ كانَ وَعْد رَبِّنا لمفْعُولَا ﴾ (١) .

﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمٰواتِ والأَرْضِ رَبِّ العَرْشِ عمَّا يَصِفُون ﴾ (٢) .

جاء بصفات الربوبية التى متعلقها للمؤمن والكافر . . أما عطاءات الألوهية فهى منهج العبادة وهى للمؤمن فقط .

ومرة يأتى بالحديث الذى من أجله تحكم أنت بأنه منزه ، وذلك فى صلة الموصول بعد التنزيه .

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّها ﴾ (٣) .

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ (٤) .

﴿ فَسُبْحانَ الذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْء ﴾ (٥)

يأتى بالأشياء التى تشهد بأنه ليس مثلى ، أو بالأشياء التى تخرق نواميس الكون .

---

(١) سورة الإسراء آية : ١٠٨ .
(٢) سورة الزخرف آية : ٨٢ .
(٣) سورة يس ، آية ٣٦ .
(٤) سورة الإسراء آية : ١ .
(٥) سورة يس ، آية ٨٣

المعجـــزة القـــرآنية

طبيعة المعجـــزة :

كل رسول كان يأتى لقومه كان لابد أن تكون معه آية ، كدليل على صدق تبليغه عن الله ، وما دامت الآية دليلا على صدق تبليغ الرسول عن الله ، فلا بد ألا تكون فى طاقة البشر ، لأنها لو كانت فى طوق البشر لصلح ادعاؤها من كل أحد وكل إنسان له نبوغ فى ناحية ، أو تميز أو سبق فيها ، أو رقم قياسى يمكنه من أن يأتى بالشىء الذى تفوق فيه ، ويقول : أنا أصنع ما تعجزون عنه .

إذن فلا بد أن يكون انطباعها أنها فوق طاقة البشر ، حتى لا يمكن لعقل أن يرد ذلك إلى نبوغ نابغ ، أو عبقرية عبقرى .

إذن فالمعجزة تفترق عن السبق العلمى ، والسبق الموهبى ، لأن كل فن من الفنون فيه إنسان بارز لايبارى فيه ، فهب أن ذلك الرسول فى هذه الناحية إنسان ذو موهبة ، ولم يوجد أحد يباريه فيها ، لكنها فى الحق ليست من هذا اللون .

لأن هذا اللون من الممكن أن ينتقل إلى الغير بواسطة المنهج الذى صير هذا الشخص موهبة ، فيتعلمه آخر ، ويصير مثله ، وقد يتفوق عليه ، كشأن الاختراعات والابتكارات التى تفاجئ الدنيا .

ومعنى الابتكار الجديد هو الشىء الذى عجز عنه من قبلنا ، وسر العلم يتعدى للغير ، ويمكن للغير أن يتعلمه ، ولذلك يتفوق اختراع اليوم عن اختراع الأمس ، ويتفوق اختراع غد عن اختراع اليوم ، لكن المعجزة ليست من هذا الطابع ، لأنه مادام يمكن تقليدها ، أو إحداث مقدمات لتصل إليها فهى ليست معجزة .

إذن فكل معجزة طابعها ألا تكون فى طوق البشر ، ولذلك نجد أن المعجزات هى المعجزات .

فمثلا إذا قيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم انتقل إلى بيت المقدس وعاد فى ليلة ، فيأتى واحد الآن ويقول : من الممكن الآن أن نعملها فى ساعة ، بل فى ربع ساعة ، فقل له : أنت تريد أن تفسر عقلانية المعجزة ، ولكن أبق المعجزة على طابعها ، بحيث قل لى : إنه من الممكن لواحد أن يقطع المسافة من مكة إلى بيت المقدس فى ليلة بدون آلة . أما بآلة ومقدمات فذلك شىء آخر . إذن فالمعجزة هى المعجزة فى كل وقت .

* * *

معجزة الإسـلام ومعجزات الرسـل :

والمعجزات التى سبقت رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت فقط آيات لصدق الرسل فى التبليغ عن الله ، فكانت خارجة عن طوق البشر ، والخروج عن طوق البشر لايتأتى دفعة واحدة ، إلا إذا كان فى ناحية تفوق ذلك البشر . . لأنه لو لم تكن فى ناحية تفوقه لكان من الممكن أن يقول قائل : أنا لوتعلمت ذلك لجئت بها .

فتأتى المعجزة فى الناحية التى تفوقت فيها الأمة ، وتأتى معترفة بالتحدى، لأنه شرط فيها .

والقرآن على هذه الطبيعة ، جاء على ناحية تفوق القوم ، والعرب لم تكن لهم ثقافة ، ولا أى شىء إلا اللسان ، فجاءت المعجزة من جنس ذلك اللسان .

إلا أن القرآن اختلف فى أنه انضمت فيه المعجزة إلى كتاب المنهج، بمعنى أن إنجيل عيسى غير إبراء الأكمه والأبرص ، فالمعجزة فى دين عيسى شىء ، وكتاب منهجه شىء آخر . . والتوراة كمنهج لموسى ، وعصاه

شيء آخر . لكن جاء على أنه منهج ومعجزة فى وقت واحد ، فلماذا ؟

* * *

مميزات المعجزة القرآنية :

كان القرآن منهجاً ومعجزة ، لأن هذا المنهج لازم للزمان والمكان ، غير منقطع مثل المعجزات الأخرى ، إذن فلا بد أن تصحبه معجزته ، لأن المعجزات السابقة رآها فصدقها ، وأصبحت خبراً من الممكن أن يصدق ، ومن الممكن أن يكذب . ونحن صدقناها لأن الله قالها ، لأنها وقعت مرة واحدة ، فمن رآها فقد اقتنع بها على قدر محيط الرسالة ، لكن مادام الرسول رسولا للناس أجمعين فلابد أن تكون معجزته باقية بقاء المنهج .

إذن المعجزة هى المنهج هذه واحدة ،

والمعجزة من نوع غير حسى ، أى مما لايقع مرة واحدة وينتهى ، بل يبقى ، هذه ثانية .

والأمر الثالث : ان كتب الأنبياء السابقين كانت المحافظة عليها أمراً تكليفياً ، أما المحافظة على القرآن فليس أمراً تكليفياً ، بل هو موكول إلى الله . ولذلك كان هناك استحفاظ ، وهناك حفظ .

والمعجزات الأخرى كانت فعلا من أفعال الله تعالى ، يجريها على يد عبد من عباده . . والقرآن صفة من صفات الله تعالى . . ويلاحظ أن ماكان فعلا من أفعال الله فهو باق بإبقاء الله له . . لكن ماكان بصفة من صفات الله ، فليس باقياً بالإبقاء ، بل هو باق بالبقاء ، وعلى هذا فمعجزة محمد صلى الله عليه وسلم باقية ببقاء الله .

ومن حيث كونها أعجزت العرب ، فإعجاز العرب جاء إعجازاً لغيرهم من باب أولى . لأن المرتاض بهذه اللغة إذا عجز ، فالذى يتعلمها أعجز ،

لأن هذه تكون بالموهبة والسليقة ، وتلك بالصناعة . إذن فالإعجاز للعرب مستوعب لغير العرب من باب أولى .

إلا أن تلك الناحية ليست هى ناحية الإعجاز فقط ، بل هناك إعجاز مستوعب لكل العقول فى اللغات وفى كل الأجناس ، وهو الإعجاز العقلى . . الإعجاز المنهجى . . الإعجاز الكونى .

* * *

الإعجـــاز الكـــونى :

الإعجاز الكونى هو الإعجاز من ناحية الحقائق الكونية التى لم تكن موجودة ، ولكن الله يعلم أنها ستوجد ، فيأتى القرآن فيمسها مساً خفيفاً . فلماذا ؟

لأن العقول المعاصرة ماكانت تطيع هذه العمليات العقلية ، لأنها نتيجة نشاط ذهنى ، ونتيجة مقدمات تبقى قرنين أو ثلاثة إلى أن تظهر ، لأنه طبعاً كما نعلم لايوجد هناك مخترع يظهر فجأة .
بل إن أى مخترع مهما علت قيمته إذا ربطته بالحلقة التى قبله مباشرة تبقى النقلة سهلة ، لكن الصعوبة أنك تنقل قمة الحلقات ، حينئذ تصبح الخطوة واسعة جداً .

فإذا جئت فى عمر العقل البشرى وكل جيل ينتقل نقلة واحدة إلى قضية ، والذى يجىء بعده يأخذ مما انتهى إليه الأول ، فيبدأ بداية ثانية ، وهكذا ، وهكذا ، فتأتى الاختراعات فى قمتها .

إذ أنا فى الاختراعات فى قمتها لم أجئ بها من عدم ، أنا جئت بها بمقدمات بحيث كانت النقلة من هذه الحلقة بالنسبة لما قبلها قريبة ، لكن بالنسبة لما قبل قبلها بعيدة .

وإذا كنا فى هذا القرن ، والعقول أصابها من الثقافة ما أصابها ، ومع

ذلك يوجد قوم يجادلون فى كثير من حقائق الكون ، فهل كان من المعقول أن القرآن يأتى بحقائق الكون ويعلنها على العرب ؟

لا . . الكتاب لم يجئ كتاباً كونياً ، لم يجئ ليعلمنا العلوم . . الكتاب جاء يستحث عقولنا أن تتعلم . . ولكن أيمر على الحقائق وهى حقائق ؟ نقول له : قائل الكلام هو الله ، وخالق الكون هو الله ، وما دام قائل الكلام هو خالق الكون ، فيجب ألا تتضارب حقائق القرآن مع حقائق الكون ، ولذلك لايمسها على أنه يعلمنى فيها ، ولكن يمسها على أنها مسألة ثابتة .

إذن فإذا كان القرآن قد تحدث عن حقائق كونية كانت مطمورة ، وكان العقل لايلتفت إليها ، وبعد ذلك جاء العقل فعرفها ، فهذا إعجاز لعقول العرب وحدها ؟ أم لكل عقل فى كل لغة ؟

ولذلك الحق يخاطب فيقول : كان يجب لمن آمن بى أننى إذا قلت فقولى هو الحق ألا يطلب منى دليلا ، فأنا الدليل ، فإذا كانت بعض العقول لاتكفيها شهادتى ، بل تثق فى نفسها وبحسها أكثر ، فأنا سأتمشى مع هؤلاء وأريهم آياتى :

﴿ سَنُرِيهِم آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وفِى أَنْفُسِهِم حتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُم أنه الحَقُّ أَو لَمْ يكْفِ بربِّك أَنَّهُ على كُلِّ شَىءٍ شَهِيدٌ ﴾ (١) .

ومعنى الآية : أنه كان يكفى أن يكون الله شهيداً على ما يقول فلا تطلب الدليل على ما قال ، لأن طلب الدليل معناه أن الدليل أقوى .

إذن فقد أوجدت من مقدمات عقلك ، ومن جراء حسك ومحساتك شيئاً يشهد على ماقاله الله . يقول الله : لا . . المؤمن لايقول هذا . . المؤمن يقول : الله قال أم لم يقل ؟ فإن كان الله قال فكفى بالله شهيدا .

---

(١) سورة فصلت ، آية : ٥٣ .

لكن هناك ناس لايكفيهم الله شهيدا ، وإذا كان هؤلاء لايكفيهم الله شهيدا ، فالكون المحس الذى لايفهمون إلا به سيعطيهم الأدلة . . والقرآن من هذه الناحية إعجاز لكل العقول .

* * *

وسائل الخطاب الإلهــى :

هذا القرآن كلام الله ، ولكن الحق سبحانه وتعالى قال فى كتابه :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يكلِّمه الله إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَاب أَوْ يرسِلَ رسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشَاءُ ﴾ (١) .

إما عن طريق الوحى ، وإما أن يرسل رسولا وإما من وراء حجاب .

قالوا : إن العقل يجب أن يقبل هذه المسألة راضياً ، لأن قانونه المادى يلزمه بها . . لأنك إذا أردت أن تأخذ من الطاقة العالية لتعطى القوة الضئيلة ، فالقوة الضئيلة لاتحتمل . . مثل الكهرباء والترانسفورم ، تأتى بشىء يأخذ من القوى ويوصل للضعيف ، وإلا عجز الضعيف ولم يحتمل .

إذن فمن الذى يستطيع أن يتلقى عن الله ؟ لابد من وسيلتين من ناحية المتلقى عن الله من البشر ، ومن ناحية المتلقِّى عن الله من غير البشر .

واحد من البشر يرفعه الله ، ويصنعه على عينه ، بصفات يؤهله بها . . وهذا أيضاً يكفى ، بل لابد أن يأتى واحد من الجنس الأعلى منه ، ويهيأ لهذه المهمة . إذن يأتى جبريل من الناحية غير المادية ، ويجىء محمد من الناحية المادية .

وهنا يحدث شىء من اثنين :

إما أن ينتقل صاحب الجنس الأعلى فيتشكل بما يوافق الجنس الأدنى ، ويبقى بشراً مثله ، ويكلمه ، فيأخذ عنه .

---

(١) سورة الشورى ، آية : ٥١ .

وإما أن يرتقى الأدنى إلى منزلة الأعلى ، فيأخذ منه .

والعملية الأولى لا تحتاج من المستقبل البشرى إلى مجهود ، لأن المجهود سيتحمله عنه الجنس الأعلى ، مادام سيتصور فى صورة بشر ، وهو قادر على هذا بما أعطاه الله من أن يكون بشراً .

إذن حينما يتصور جبريل بصورة بشر ، فقد كفى الرسول صلى الله عليه وسلم مؤنة النقلة . . وإذا بقى الملك على حقيقته ، فلا بد أن توجد فى البشرية تفاعلات خاصة . . فالبشرية تخنق ، حتى لايتجلى فى النفس إلا الروح ، والروح يسهل عليها أن تأخذ عن الملك . . فإذا انتهت مهمته يسرى عنها ، وترجع إلى حالتها الأولى .

وهكذا كان الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، إما أن الحق سبحانه ينفث فى روحه ، أو فى قلبه خاطراً ، فهذا وحى . وإما أن جبريل يظل على هيئته ، وبشرية محمد هى التى تخمد ، والروحانية ترتقى لكى يأخذ ، وهذه حالة ﴿ من وراء حجاب ﴾ . ونجد أن النفث فى الخاطر من الممكن أن يعزى إلى خواطر النفس ، لأن النفس لها خواطر كثيرة ، وهذه واحدة .

* * *

الخواطر الشيطانية والرحمانية :

والخواطر التى تمر على النفس كثيرة ، مرات تأتى وساوس شيطان ، ومرات تأتى واردات إلهية ، فبماذا نعرفها ؟

الوارد الإلهى لايكون إلا فى حيز دائماً ، ومع الوارد الإلهى دليله على أنه من الله ، فلا يطلب العقل دليلا ولا شيئاً . . حتى ولو طالبه أن يقذف نفسه فى النار ، مادام من الله لايناقش . . هذا هو الوارد الإلهى .

ولذلك نجد أن الوارد الإلهى إذا ورد بادر من ورد عليه إلى تنفيذه ولوكان مما لايتفق مع العادة .

فمثلا عندما يعرض القرآن قوله تعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ ﴾ (١) .

هات أى امرأة وقل لها : عندما تخافى على ابنك أقذفيه فى البحر . أهذا الخاطر يخطر عليها ؟ ولكنه جاء لأم موسى ومعه دليله أنه من الله . . لا يناقش ، حتى ولو كان على خلاف العادة ، وعلى خلاف ما يحكم به العقـــــل .

وخاطر الشيطان لابد أن يكون فى الشر ، لأنه قال : ﴿ لأغوينّهم ﴾ .

أما خاطر النفس ، فهى مقبلة على الشهوات ، والمنهج يضيق عليها ، ويكتبها ، فتأتى بخواطر قد تكوى الاستعاذة فى دفعها . . فكيف نفرق بين خاطر النفس وخاطر الشيطان ؟

إذا ظل الخاطر فى معصية واحدة بحيث إذا أزحته رجع إليها ، فهو من النفس ، لأن النفس تريد الإنسان عاصياً لناحية تشتهيها ، ولا تريد أن تتحول عنها ، ولكن الشيطان يريد الإنسان عاصياً فقط بأى معصية . . فإذا عزت عليه معصية نقله إلى أخرى .

---

(١) سورة القصص ، آية : ٧ .

أركان الإسـلام

الصـلاة :

يريد الله تعالى أن يديم الولاء الإيمانى له استدامة لا يغفل الإنسان عنها أبداً، حتى تصدر حركته فى الحياة موافقة لمنهجه الذى أنزله ، فيقول : يكفى أن نؤمن ، بل لابد أن تجدد إيمانك .

فيناديك كل يوم خمس مرات ، ليذكرك بقوله : « الله أكبر » أن الإيمان به أولى من كل حركة تشغلك عنه فى الوجود . حينئذ يصدعك ويقول : الله أكبر . ومعنى ذلك أن كل شىء يشغلك عن ذلك الإله فالله أكبر منه ، لأنه واهب حركتك وواهب فكرك ، وواهب المادة التى تتفاعل معها ، فلا تقل شغلنى كذا .

يقول الله لك : إنه أكبر من كل ما يشغلك، لأن الذى يشغلك عنه من عطائه ، فكيف يشغلك عطاؤه عنه . إنه لا يريدك فقط أن تكون مع النعمة ، لكن إذا دعاك المنعم تركت النعمة ، وذهبت إليه .

ذلك هو جلال اليقين الإيمانى ، فشرع لك الولاء بالصلاة ، تدعى إليها كل يوم خمس مرات ، ولم يطلب منك ذلك لتأخذ شيئاً من نعمة وتردها إليه ، ولكن لتأخذ أنت منه الهدية والهداية .

ويجد المقربون إلى الله أنه بفرضية الصلاة عليهم أعزهم ، وجعلهم فى رحاب حضرته ، ليديم عليهم عطاءه ، فما دام الأمر كذلك إذا رأينا أن الرجل المؤوب إلى الله يقول ويدرك هذه المسألة التى ربما تمر على كثير منا دون فكر ووعى يقول :

حب نفسى بأنى عبـــد   يحتفى بى بلا مواعيد رب
هو فى قدسه الأعز ولكن   أنا ألقى متى وأين أحـب

وإننا نعرف أن الداعى يعطى المدعو من التحف والإفضال والإكرام ما يناسب منزلته . . فهذا يعطى قهوة ، وهذا يعطى شاياً ، وآخر نقدم فاكهة ، وغير ذلك ، فإن الإنسان إذا دعى إلى حضرة الله ، فلله ألطاف وتحيه يحييه بها فى بيته ، وما دامت التحية على أقدار الداعى ، وعلى أقدار المحيى ، فانظر إلى هدية على قدر ربك . إنه يعطى العطاء الخفى ، فقد أعطى الطاقة ، وأعطى الشحنة ، وأعطى اليقين ، وغير ذلك مما لا نعلمه .

* * *

الزكـــاة :

إذا تحرك الإنسان ، وأتى بالمال ، فيريد الله أن يديم ابتلاء عبوديته فيقول : أخرج بعضاً من مالك هذا لإخوانك الضعاف . فيشرع الزكاة ويقول :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خاشِعُونَ * والَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * والَّذِين هُمْ للزَّكاةِ فاعِلُونَ ﴾ (١) .

ولم يقل : للزكاة مؤدون . لأن (مؤدون) توحى بأن الذى عليك مالا يؤدى الزكاة . ولكن ﴿ فاعلون ﴾ غير ذلك. فكأن حركتك فى الحياة نيتك فيها أن تكسب لتعول نفسك ومن تحب ، وتعطى من فضل الله من لا يقدر على العمل .

أى أن عملية الغير فى بالك فى أثناء الفعل،وليس أن تفعل وحظك أن تنفع نفسك ومن تعول فقط . ولكن الضعيف الذى لا يقدر على العمل له فى مالك نصيب .

والفرق بين المتدين وغيره : أنه يصنع لنفسه ولأهله ولمن لا يقدر على الحركة : فكأن قضية الزكاة من ماله فى بؤرة شعوره ساعة الحركة . . وذلك لا يتأتى من الحركة إلا إذا تحركت فى الحياة لتنتج ، لا على قدر استهلاكك واستهلاك ذويك فحسب . بل لأن هناك أناساً غير قادرين ،

---

(١) سورة المؤمنون ، آيات : ١ ، ٤ .

وقد أراد لهم الله ذلك فى الحياة ، لا ضنا منه عليهم ، ولكن تريبياً لفائدة الذكرى فى نفس الإنسان حين يرى وهو قادر على العقل واحداً غير قادر الفعل ، مع أن كلا منهما من خلق الله فمن مصلحة كل إنسان أن يعين بحركته الضعيف . لمــاذا ؟ . .

حتى يمكن للقوى عنه فيما بعد أن يغيثه فترة ضعفه ، ولذلك جعل الله الأيام دولاً بين الناس ، فلم يجعل أناساً قادرين دوماً ، وأناساً عاجزين دوماً ، بل إن عملية القدرة والعجز هذه قضية مستطرقة فى الخلق جميعاً .

وقد سمى الله عملية إخراج المال وإعطائه للضعيف زكاة ، وسماها نماء ، وسماها طهراً ، فكيف جاءت هذه التسميات ؟

إن الزكاة تتطلب عناصر : مزكى ، وهو صاحب المال . ومزكى عليه ، وهو المصرف . ومزكى به ، وهو المال ، أياً كان هذا المال : فكيف تكون الزكاة نماء ، وتطهير لهذه العناصر الثلاثة ؟

فلنأخذ عنصر المزكى ، وهو العنصر الفعال فى العملية ، فالمزكى قد تدخل عليه الغفلة فى بعض مكاسبه ، فيأخذ شيئاً قد تكون فيه شبهة الحرمة ، فيأتى الله بالزكاة لينقصها فيطهرها من تلك الفضلة ، هذه هى الطهارة فأين النمــــاء ؟

هل تعتقد أن النماء فى الأشياء هو الزيادة فقط ، إذن ذلك من غفلة الناس فى الأشياء الزيادة فقط ، إن ذلك من غفلة الناس فى تقدير الأرزاق ، فدائماً ينظرون إلى رزق الإيجاب ، ولكن لا ينظرون إلى رزق السلب .

ولكى نفهم ذلك نفرض أن رجلا دخله الشهرى مائة جنيه ، فيفتح الله عليه من المصارف ما يزيد عن هذا الدخل فلا يكفيه دخله ، وهب أن رجلا له نفس الدخل ، فمنع الله عنه أشياء تسلب منه خمسين جنيهاً : فيتوفر معه المبلغ أى إن رزق السلب هو المهم فى الحياة .

هذه من ناحية المزكى . . ومن ناحية المزكى عليه فكيف يكون تطهيراً له ونماء ؟

لأن المزكى عليه بمكن وهو ضعيف ينظر إلى من هو أقوى منه ، فقد تتحرك فى نفسه قوة الغيرة والحقد والكراهية والغل ، لكنه حين يرى إنساناً أنعم الله عليه ، ثم مد يده إليه بالمعونة بما أنعم الله عليه ، فيقول : إن النعمة عنده نفعتنى ، فلن يوجد الغل والحقد على النعمة ، فيكون قد طهر نفسه ولم يتعب روحه ، وكيف يكون نمـــاء ؟

لأنها تعطيه ما لا تعطيه حركته فى الحياة ، وأيضاً تدله على أنه فى مجتمع إيمانى متكافل ، وحين يذوق المزكى عليه حلاوة العطاء من المزكى يحلو فى نفسه ذلك ، فيحب أن يكون هو أيضاً مثل ذلك المزكى ، فيشتغل فى الحياة ويضرب فيها ، ليذيق غيره هذه الحلاوة .

* * *

الصـــوم :

الأمر العبادى يجب أن يعايش الإنسان . . فكل عمل وإن صادف طاعة بلا نية العبادة لله هو عمل هابط نازل ، مخافة أن تنشأ الطاعات فى النفس على إلف العادة ، ويحرم الإنسان شرف العبادة ، شاء الله أن يجعل ركناً من أركان الإسلام يحرم فيه ما أحله فى بقية العـــام .

فكأن العادة جرت أن تأكل وتشرب وتأتى امرأتك فى النهار ، فجاء الحق ليحرمك من شىء . . يحرمه عليك مع أنه حلال فى غير ذلك الزمان لمـــاذا ؟ . . .

ليستديم لك شرف الشعور بعبودية التكليف ، لأنه لو تركك على ما حرم كل وقت ، يخاف أن تسيطر عليك العادة ، فتحرمك لذة الشعور بالعبادة .

أى إن رمضان عبادة صعدت . . ومعنى عبادة صعدت : أنه فى غير رمضان أمور حلت دائماً ، وأمور حرمت دائماً ، فيميز رمضان بأنه شمل الأمور التى حلت ، والأمور التى حرمت فى غيره ، وزاد شيئاً آخر ، فذلك تصعيد العبودية عند المؤمـــن .

فأصفى ما يكون المؤمن عبودية لله فى منهجه هو فى شهر رمضان ، والذى يصعد العبادة إلى هذا الشكل ، وينفى عن الإنسان إلف العادة ، يكون قد أخذه أخذاً ليضعه وضعاً عبادياً نورانياً ، لذلك اختار الله ذلك الزمان الذى أعد فيه الإنسان ذلك الإعداد الصفائى لدوام شرف العبادة وليس إلف العادة .

واختاره لقمة صفاء آخر ، هو أن ينزل فيه منهجه إلى الناس أجمعين ، وإنك لو نظرت إلى الصوم الذى شرعه الله فى رمضان شرعاً إلزامياً ، لم يمنع أن تتطوع إلى الله بصيام فى سواه ، وذلك ليفتح باب الطموح العبادى إليه ، ويريد للإيمان أن يعلو ويتسامى فى نفس البشر .

* * *

ويتميز الصوم عن بقية الأركان بأنه لله . . . أما الأركان الأخرى فهو للمؤمن فيقول الله تعالى فى الحديث القدسى :

« كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به » .

لأن الصوم هو العبادة التى لا يتقرب بها البشر لبشر . فلا يعقل أن تقول لعبد مثلك أنا سأصوم لك هذا الشهر ، لأنك بذلك تجبره على مراقبتك طول الوقت ، وبالتالى تكون قد أتعبته .

ولكن الله الذى يراقب العبد فى كل تحركاته يمكن أن يتقرب إليه بالصوم ، وكذلك قال الله : إن كل عبادة من العبادات داخلة فى كادر الجزاءات عنده ، الحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، ولكن الصوم خارج عن هذا الكادر والله هو الذى يقدر الجزاء فيه .

ومعنى التقدير الأعلى للجزاء فيه بغير الكادر الجزائى أن الله يضع فيه فوق السبعمائة ضعف .

وفى نهاية رمضان يسن الاعتكاف ، وهو إلزام النفس بالإقامة فى بيت منسوب لله ، ليقطعه عن كل منسوب لخلق الله ، فيخرج من إلف بيته ، إلى إلف بيت ربه ، ويخرج من إلف وجوده مع أهله إلى إلف وجوده فى مناجاة ربه ، ويخرج من كل ما اعتاد خارج بيت الله ، ليخلص

وقتاً فيه يصفو لله ، وتكون له فيه الجلوة ، كل ذلك أخذ الإنسان من الوجود إلى الإلف بالموجد .

فوجود الإنسان فى بيت ربه يعطيه شحنة ، وبعد الشحنة يخرج الإنسان ليستقبل أمر حياته بما أفاض الله عليه من فيض إيمانه ، وفيض تقواه ، وفيض بره ، وفيض رضاه ، ليزاول حركة الحياة بهمة ونشاط كما يجب .

* * *

الحــج :

حين سن الله لرسوله أن يأخذنا فى آخر رمضان ، فإنه ارتقاء للتصعيد التكليفى ، لأن إلف المكان ، وإلف السكان ، وإلف الأهل ، يعمل فى النفس البشرية بعض العوائق عن الله ، فيخرجنا هذا المخرج الصفاء لنجرب الذى يتأتى لنا ، ونتعود أن نترك الأهل بعض الوقت ، لأنه يريد أن يعدنا لرحلة أخرى ، هذه الرحلة تعتبر الركن الخامس من أركان الإسلام .

لأنه بعد وقت معين سنترك كل شىء ، ونذهب إلى الحج ، فأعطى شيئاً من إلف الترك للأهل والمال والبيت .

فعندما يذهب الإنسان للحج يكون قد استكمل أركان إسلامه ، والذى يتجه إليه بقلبه يؤمن من به علم يقين أصبح يراه عين يقين ، فيرى بيت ربه الذى كان يتجه إليه ، ويطوف به ، ويؤدى المناسك ، فيعيش بعد عين اليقين ببيت الله فى حقيقة اليقين ببيت الله .

حينئذ يكتمل إيمانه ، فالأركان والأسس التى بنى عليها الإسلام قد تمت ، لأن الأركان ثابتة ، وبنية الإسلام التى توضع على هذه الأركان هى حركة فى الحياة .

اليوم أكملت لكم دينكم

لقد جاء منهج الإسلام ليواجة تيارين :

التيار الأول : هو تيار الإلحاد والجحـود لله .

التيار الثانى : هو تيار يؤمن بالإله على اختلاف فى تصور ذلك الإله .

والإسلام أقرب إلى التيار الثانى منه إلى التيار الأول . . كما أنه جاء لينظم حركة الحياة . . فتى استقام نظام الحياة . . فلا يعنى الدين أن يؤمن الناس بالإله ، لأن إيمانهم بالإلة أمر يعود عليهم فيما بعد ، فإذا شاء الله لعصبة من عصب الخير أن تؤمن بالله ورسوله الذى جاء ليكمل منهج الحياة وحركتها ، فإن ذلك كاف فى أن تسود حركة المنهج .

وحين يسود منهج الله فى حركة الحياة فى الأرض فذلك هو مراد التشريع أما أن يؤمن الناس بمصدر هذا المنهج فأمر لا يعنى ، إلا وجود عصبة قوية تؤمن بذلك المنهج ، حتى تسود حركة السماء فى منهج الأرض .

والإسلام حينما جاء بحركة حياة جاء ليكمل إسعاد الحياة ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (١) .

فالإسلام كان حركة ضرورية للإكمال فى الأرض ، ولذلك لا يعنى منهج السماء إلا أن تؤمن به قوة تحمى ذلك المنهج ليسيطر فى الأرض ، وبعد ذلك من آمن به من بقية الناس فيها ، ومن لم يؤمن فلا حاجة بنا إليه ، ما دام منهج الله أصبح مطبقاً .

ولماذا كان ذلك إكمالا ؟

---

(١) سورة المائدة ، آية ٣ .

لأننا كما نعلم أن اليهودية جاءت ولجأت إلى أن تنحاز إلى المادية البحتة أصبح لهم تصور مادى فى ذات الإله ، وهذا التصور لا يناسب ذات الله لأن ذات الله لو كانت على هذا التصور ما كانت تستحق أن تعبد ، لأن الله الذى يمكن للحواس أن تدركه إله مقدور عليه من الحواس ، لأن معنى أنك أدركت شيئاً بحاسة من حواسك : أن هذه الحاسة قدرت على ذلك الشىء فأدركته ، فلو كان الله مدركاً بالحواس لكان مقدوراً عليه منها ، والقادر المطلق لا ينقلب مقدوراً عليه أبداً .

أى إن عظمته أنه لا يدرك ، ولو أن أى تصور يجعله مدركاً لقلنا إن ذلك التصور ينازع ألوهية ، لأنه يصير مقدوراً عليه ممن أدركه .

فأنت إذا عرضت عليك مسألة حسابية وأمكنك أن تحلها ، لأصبحت قادراً ، والمسألة مقدوراً عليها ، فإن كنت تستطيع أن تحل مسألة تصورك لله ، فيصبح الله مقدروراً عليه ، ولذلك قال الله تعالى :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ﴾ (١) .

فلا واقـــع بمثله أبـــــداً .

والإنسان منا مكون من مادة توجد فيها روح ، فتنشأ فيها حياة ، فالروح التى توجد فى المادة هى التى توجد فيها الحياة والحس والإرادة والوعى ، وكل شىء ، بدليل أنه إذا سلبت منها صارت رمة .

والشىء الذى يدير مادتك ويحييها ، ويجعلها قادرة على الفكر ، وعلى استخدام الطاقة ، وغير ذلك ، هل تستطيع أن تعرفه وتدركه ؟ هنا يقف العقل ويقـــول : لا . . .

إذن فمخلوق من مخلوقات الله هو فى ذاته ونفسك ، وليس بعيداً

---

(١) سورة الشورى ، آية ١٦ .

عنك ، ومع ذلك لا يستطيع إدراكه ، فاذا كنت تعجز عن إدراك مخلوق لله ، فكيف تريد أن تدرك خالقاً ؟

ولذلك حين تقول : أين الله ؟ نقول لك : أين روحك التى تدرك أنت أنها سر حياتك وسر حركتك ، أهى فى رأسك ، أم فى بطنك أم فى قدمك ؟

إذن فليس مكان من كون الجسم أولى منها بمكان ، وكذلك الحق سبحانه ليس مكان فى ملكه أولى منه بمكان . . فاذا كان ذلك فى أمر مخلوق لله ، وعجزت عن إدراكه ، فكيف تريد وأنت عاجز عن إدراك مخلوق أن تتسامى فتدرك الخالق ؟

فإذا جاءت الأديان لتتصور فيها أى تصورات مادية فهم مخطئون ، وما على السماء إلا أن تصحح التصور .

﴿ لَمْ يَلِدْ ولَمْ يُولَدْ * ولَمْ يَكُنْ لهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (١) .

﴿ لَا تُدْرِكُه الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَار ﴾ (٢) .

ذلك هو تصوركم الذى يجب أن يبنى عليه إيمانكم ، فاذا آمنتم بهذا التصور فرحباً ، وإن لم تؤمنوا فلكم دينكم ولنا ديننا ما دام منهج الله الذى يريده مطبقاً فى الأرض .

وآفة الناس ، وآفة العقل البشرى كله هو أن يخطئ فى التصور ، ولو وقف الإنسان بفكره عند التعقل لانتهى الإشكال ، أن نتعقل أن وراء هذا الكون قوة قادرة حكيمة مدبرة منها بدأنا وإليها نعود، هذا هو التعقل.

أما أن تتصور شكل هذه القوة ، فإنك قد نقلت هذا العقل إلى ما ليس فى مجاله . .

---

(١) سورة الإخلاص آيتا : ٣ ، ٤ .

(٢) سورة الأنعام ، آية : ١٠٣ .

هل العقل له أن يتصور ؟ كلا . . . العقل له أن يتعقل فقط ، أما إذا تصور فسيحدث الخلاف ، ويجب أن يترك القوة لتعبر عن نفسها ، فتقول عن لسان من تأتمنه ، وتعطيه الحجة والعلامة ، إن اسمه الله ، وإنه يريد كذا وكذا .

إذن فقد حسم البلاغ عن الله التصور لله ، والخلافات كلها نشأت من التصور ، وكان يكفى أن يتعقلوا وجود الله .

فالإسلام جاء عند هذه النقطة وقال : فلنتعقل وجود الله ، ثم نترك للقوة المبلغة عن الله أن تعطى لنا الصورة اللازمة ، ولذلك يجب أن نفهم أن الحق ترك فى الخلق مجالا لا يكذب الكافرين به والمدعين الألوهية لسواه .

ومكان الفساد هو أن أهل الديانات انحرفت دياناتهم إلى المادية ، فكان ولابد أن تجىء ديانة روحية صرفة . فوجود المسيحية كان منطقياً وطبيعياً ، ليصوب المادية اليهودية .

لقد انعدمت القيم من اليهودية ، فجاءت المسيحية بقيم فقط ، وليس فيها منهج حياة ، لأنها كانت الجرعة المفقودة عند اليهودية .

ولكن لم يحدث وفاق بين المادية والمسيحية ، بل حدث عداء بينهما ، ومن هنا جاء الدين الجديد جامعاً لمنهج المادية ومنهج القيم .

﴿ مُحمدٌ رَسُولُ الله والَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ علَى الكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (١)

المؤمن لا يطبع على شدة مطلقه ، ولا على رحمة مطلقة ، لأنه إذا طبع على شدة فقدته مواقع الرحمة ، وإن طبع على رحمة مطلقة فقدته مواقع الشـــدة .

---

(١) سورة الفتح ، آية : ٢٩ .

الحصانة من الانحراف

حين أراد الحق سبحانه أن يرشد حركة الإنسان فى استقبال أحداث الحياة قـــال :

﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى ما فَاتكُم ولا تَفْرَحُوا بما آتاكُمْ ﴾ (١) .

واستقبال أحداث الحياة أمر طبيعى لوجود الإنسان فى معترك يضم المستقيم على المنهج والمنحرف عن المنهـــج .

إذن فوجود الأحداث فى هذه الحياة أمر طبيعى ، وما دام هو كذلك فلابد أن توجد المناعة ضد هذه الأحداث . . وما دام الإنسان متغيراً ، ويعيش مع عالم متغير ، فيجب أن يوطن نفسه على وجود الأحداث .

والحق يقــول : « لا تعش فى الحدث غير زمنه ، فإذا انتهى زمنه فيجب أن ينتهى شغلك به ، إلا أن تأخذ منه العبرة لما سيأتى . أما أن يكون الحدث مثبطاً لك ، وموهنا لك ، ومضعفاً لك ، فاعلم أنك الذى أردت أن تمد الحدث من الماضى إلى مستقبل حياتك ، وذلك ليس من العقل فى شىء » .

وأيضاً يجب أن توطن نفسك على أن الأشياء التى تأتيك وإن كانت تعجبك ، فاستقبلها كنعمة من الله بالحمد ، ولكن إياك أن تفرح بها ، لأن النعمة فى ذاتها غير مفرحة ، إلا أن توفق فى مصارفها ، أما النعمة فى ذاتها فغير مفرحة ، لأنها قد تضرك أنت ، وقد تطغيك أنت ، وقد تغريك بماص ربما لو لم يكن عندك من المال ما يقدرك عليها ما فعلتها .

فلا تفرح بالشىء إلا إذا تحققت به غايته ، وغايته ليست مجرد ملكك له ، ولا إتيانه إليك ، وإنما غايته تأتى بمصرفك لما آتاك الله ، فهل وفقت فيه فتفرح ؟

---

(١) سورة الحديد ، آية : ٢٣ .

أى إن الفرح يجب أن يؤجل إلى أن توفق ، ولذلك يأتى الحق ليشرح لنا هذه القضية التى عليها مدار حركة الكون وحركة الآمال فى الناس فيقول :

﴿ فَأَمَّا الإِنْسَانُ إذا ما ابْتَلاه ربُّه فأَكْرمه ونعّمهُ فيقُولُ ربِّى أَكْرَمَن * وأما إذا ما ابْتَلاه فَقَدر عَلَيْهِ رِزْقُه فيقُول رَبِّى أَهَانَن ﴾ (١).

هذا ما يقوله الإنسان ، فهل صوب الله منطق الإنسان فى الأولى ومنطقه فى الثانية ؟ أم خطأه فيهما ؟ ننظر ما يقول الحق .

﴿ كلا بل لا تكرمون اليتيم ۞ ولا تحاضون على طعام المسكين ﴾
﴿ وَتَأْكُلونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمًّا * وتُحِبُّونَ المالَ حُبًّا جَمًّا » ﴾ (٢)

فالنعمة ليست لك ، بل هى حجة عليك ، أى إنه تعالى لم يكرمك ، ولكنه أدخلك فى امتحان صعب . فليس الإكرام فى الإيتاء ، ولكن الإكرام فى صادق الأداء . أى إن إيتاء النعمة ليس إكراماً ، ولا سلبها إهانة ، لأنه فى الأخيرة لم تتعرض لقضية أنها موجودة عندك ولا تعطى ، فلك القدر ، وتكون فى الصنف الذى يبغض الحق قليل ، حيث صنف الحق الخلق أصنافاً فقـــال :

« أحب ثلاثا وحبى لثلاث أشد : أحب الغنى الكريم ، والفقير الكريم أشد . . . وأحب الفقير المتواضع ، والغنى المتواضع أشد ، وأحب الشيخ الطائع ، والشاب الطائع أشد .

« وأبغض ثلاثاً ، وبغضى لثلاث أشد : أبغض الغنى المتكبر ، والفقير المتكبر أشد ، وأبغض الفقير البخيل ، والغنى البخيل أشد ، وأبغض الشاب العاصى ، والشيخ العاصى أشد » .

فإنك بذلك تستطيع أن تجد المنهج الذى يعطى الحياة المحبوبة الحب الأشد لله ، فإذا كنت فى مجتمع فقيره كريم ، وغنيه متواضع ، وشابه طائع

---

(١) سورة الفجر ، آيتا ١٥ ، ١٦ .
(٢) سورة الفجر ، آيتا ١٩ ، ٢٠ .

أى مجتمع هذا ؟ هذا هو المجتمع الراقى ، والمدنية الفاضلة .

وتعال إلى مجتمع فقيره متكبر ، وغنيه بخيل ، وشيخه فاسق ، فماذا يكون هذا المجتمع ؟

وبين هذين المجتمعين يوجد مجتمعان آخران :

إذن فحركة الحياة عندما يقول فيها الحق : ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ فإنه يقول ذلك لأن الإتيان ربما يكون فتنة لك، لأنك قد لا تؤدى حق الله فيما أنعم عليك به ، فتكون النعمة عليك حجة .

وما معنى الأسى على مافات ؟

هو شغل النفس بما لا يجدى ، لأنك بذلك ضيقت الطاقة التى تستقبل بها حركتك فى التعويض عن الحدث الفائت ، وهذه لأنه يتركب فى نفسك أن الحدث هو الذى صنع لك كل بؤس فى حياتك .

وهناك أيضاً خوف ، وهناك أيضاً هم ، فالخوف يأتى من شىء تعرف مصدره ، والهم يأتى من شىء لا نعرف مصدره ، وإن عرفت مصدره فليست لك قوة على دفعه . وهذا هو الهم المعقد ، ولذلك عندما سئل الإمام على عن أشد جنود الله فى الأرض قال : « الجبال الرواسى ، والحديد تقطع الجبال ، فيكون أقوى ، والنار تذيب الحديد فهى أقوى ، والماء يطفئ النار والسحاب المسخر يحمل الماء ، والريح يقطع السحاب ، وابن آدم يغلب الريح والسكر يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السكر ، والهم يغلب النوم ، فأشد جنود الله الهم » .

فإذا ما نظرت إلى القضية فى ترتيبها الطبيعى المنطقى وجدت أن الهم وهو معنى من المعانى يستبد بالنفس الإنسانية فيبدد طاقتها ، ويبدد ملكتها ، ولا يجعل المصيبة فيما فات ، ولكن يستمر بها فيما هو آت .

وقيمة الإيمان أن ينزع من النفس ذلك الهم ، فإن كانت المصيبة من عمل يدك فهى تربية لك ، حتى لا تعود إليها ، ولك يقولون : ما ضاع من مالك ما أدبك . فالأمور التى تصيب الإنسان نوعان :

نوع لحركته دخل فيه ، فلا يحزن عليه ، لأنه إن حزن فإنما يحزن على نفسه .

ونوع لا دخل لحركته فيه ، فالذى أجراه أدبه به لأمر يصلحه ، لأنه حكيم لا يجرى على الإنسان إلا ما يصلحه .

يجب الاطمئنان إلى أن كل عمل فوق اختيارك وقع عليك لابد أن يكون فيه خير . . فالأب الذى هو سبب الإيجاد لا يحب لولده إلا الخير ، فما بالك بمن خلق السبب ، ألا يكون على الأقل مثل أبيك وأمك فى حب الخير لك ؟ »

الفلسفة والبعث

أقوى شبهة قال بها الفلاسفة الذين يستبعدون أمر البعث مادياً : أنهم يقولون : إن الإنسان مكون من عناصر ، وحينما يموت تذهب عناصره إلى الأرض ، فإذا ما ذهبت عناصره فى الأرض صارت من عناصر الأرض ، وأصبحت عرضة لأن يخرج منها نبات ، وأن يخرج منها حيوان ، وأن يتكون مما خرج منى إنسان ، وبعد ذلك يكون منه إنساناً .

إذن فالعناصر التى كانت فى الإنسان الذى مات ، وشاعت فى التراب سيتكون منها إنسان آخر .

فمثلا : إذا جاء ميت ومات فى مكان ، وبعد ذلك تفرقت عناصره فى الأرض ، وبعد ذلك غرس فى تلك الأرض شجرة ، ونبتت هذه الشجرة ، وأثمرت ثمراً ، ثم أكله إنسان ، هذا الإنسان حين يأكل من ثمرة هذه الشجرة ، ستتكون عناصره وذراته من هذه الثمرة التى أكلها تغذت من عناصر واحد آخر قد مات .

فإذا بعث ، أيبعث من الأول ، أم يبعث من الثانى ؟ فإن بعث من الأول نقص من الثانى ، وإن بعث من الثانى نقص من الأول ، وهكذا دواليك .

هذه أقوى حجة للفلاسفة فى استبعاد البعث والميعاد والقيامة .

لكنهم لم يفطنوا إلى شىء . . هو أن العناصر فى ذاتها ، وهى العناصر الخام لا تتميز . بمعنى أن الحق سبحانه وتعالى يخلق الإنسان مكوناً من ستة عشراً عنصراً ، وحينما يموت الإنسان تذهب هذه العناصر فى الأرض ، فتصير من جملة عناصرها .

والتكون الشخصى لكل إنسان ليس فى أن الإنسان مكون من عناصر أخيه ، فالعناصر واحدة ، ولكن نسبة هذه العناصر بعضها لبعض هى التى يكون فيها الاختلاف . فهذا ٦٧ ٪ وهذا ٦٧,١ ٪ وهذا ٦٧,٠٠١ ٪ .

إذن فاختلاف الشخصيات إنما ينشأ من اختلاف العناصر المكونة لتلك الشخصية فأنت إذا جئت لإنسان وحللته ، وبعد ذلك قلت : فيه ذرات كذا أكسجين ، وكذا كربون ، وكذا هيدروجين ، وكذا نتروجين . وكذا مغنسيوم ، وكذا بوتاسيوم ، وكذا فسفور ، وكذا صوديوم ، وكذا يود .

ثم حللت إنساناً آخر فإنك تجد أيضاً هذه العناصر ، ولكن بنسب تختلف بعضها عن بعض ، بدليل أن الإنسان تحصل له انحرافات صحية ، فيذهب إلى الطبيب ، ويحلل له ، فيجد أن العنصر الفلانى ناقص عما ينبغى أن يكون ، فيعطيه مثلا الفسفور ، أو يعطيه الحديد ، أو يعطيه اليود .

ومعنى ذلك أن الانفعال المضطرب عنده ناشئ من أن عنصراً فيه نزل عن القدر الضرورى فى تكوينه ، فيعطيه هذه العناصر ، فتسلم صحته .

إذن فاختلاف الشخصيات إنما ينشأ من اختلاف نسب العناصر ، فنسب العناصر حينما تكون معلومة بالدقة فإنه لا يمكن أن يتفق شخص بدأ فى نسبة هذه العناصر .

إن جئت بمليون شخص ، وحللت عناصرهم ، لا تجد شخصاً متفقاً مع شخص آخر فى نسبة هذه العناصر ، وإن اتفق معه فى وجود مجموعة هذه العناصر.. إذن فالمعول عليه فى تكوين كل فرد هو النسبة المكونة لهذه العناصر.

فإذا كان الحق سبحانه وتعالى يقول فى ذلك :

﴿ قَدْ عَلِمْنَا ما تَنقُصُ الأَرْضُ مِنهُمْ ﴾ (١) .

فكأنه يقول : نحن نعرف قدر العناصر التى أخذتها الأرض وكميتها ، فإذا أردنا أن نبعثه فما علينا إلا أن نأمر العناصر المكونة لجسم فلان أن تجتمع فإذا تكونت بنسبته تكوينها الأول كان ذلك هو الشخص .

---

(١) سورة ق ، آية ٤ .

رجنسية العناصر ليست ضرورية . . . لماذا ؟

لأن إنساناً مثلا يكون وزنه مائة كيلو جرام ، وبعد ذلك يمرض ، فينقص وزنه ثلاثين كيلو جرام ، فإذا نقص ثلاثين كيلو ذهب إلى طبيب ، فيهتدى الطبيب بعناية الله إلى علته ، فيشخص العلة ، ويصف الدواء ، فيشفى ، وبعد ذلك يقول له : كل كذا وكذا ، فإذا أكل عاد وزنه إلى ما كان عليه .

فهل الثلاثون كيلو التى زادها بعد ما نقصها ، ولم تغير من شخصيته ، هى بعينها التى كانت نقصت من جسمه حال مرضه ؟

لا . . . ليست هى ، ولكن الشبه التكوين هى ، هى . إذن فالمهم فى تكوين أى شخص هو نسبة تكوينه من عناصره .

وما دام الحق يقول : ﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم ﴾ فمن الضرورى اللازم أن تكون علم ربنا سبحانه وتعالى بالنقص علماء دقيقاً . فحين يأمر الحق بإعادة التراكيب ، تأتى عناصر كل إنسان وتكونه ، أى بنسبة وجودها فيه .

وبذلك تكون الشخصيات هى هى ، تكون الشخصيات مختلفة أيضاً ، لأننى لما نقصت الثلاثين كيلو ، وبعد ذلك زدت الثلاثين كيلو ، لم تلحظ فى شخصيتى تغيير ، شخصيتى هى شخصيتى ، إذن فقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهم وعِنْدنا كِتابٌ حَفِيظٌ ﴾ (١) .

يرد على الفلاسفة الذين قالوا : إذا أخذ من هذا نقصٌ من هذا .

لأن الكمية التى نقصت من الأرض ليست بعينها الكمية التى دخلت ثانياً فى تكوينه حين زاد وزنه ثانياً .

---

(١) سورة ق آية : ٤ .

وأيضاً فالحق سبحانه وتعالى يضرب لنا المثل فى ذلك وهو : أن الإعادة دائماً أهون من البداية . . لأن الله الذى آمنتم بأنه خلقكم من عدم ، من لا شيء ، حين يقول : إننى أعيدكم من شيء ، فأيهما أهون ؟ قال تعالى :

﴿ وهُوَ الذِى يَبْدأُ الخَلْق ثُم يُعِيدهُ وهُو أَهْوَنَ عَلَيْهِ ﴾ (١).

كلمة ﴿ أهون ﴾ هذه على اعتبار أساليب البشر ، ليس هناك شيء هين على الله وشيء غير هين ، ولكنه يخاطبنا على حسب مقاييس البشر .

إذن فقوله تعالى : ﴿ فإِنما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدةٌ ﴾ (٢) .

يعنى : لا تستصعبوا ذلك ، ولا تستبعدوه ، فإن ذلك لا يكلفنا علاجاً ، وليس صعباً علينا ، فإنما هى زجرة واحدة ، صيحة واحدة يصيحها الملك ، فإذا الكل قيام ينظرون . . .

---

(١) سورة الروم ، آية : ٢٧ .

(٢) سورة الصافات آية ١٩ .

الخليـــل والبعـــث

لم يكن إيماننا باليوم الآخر سبباً فى إيماننا بالله تعالى ، وإنما آمنا بالله أولا وحين آمنا به ، وقال لنا : إن هناك يوماً آخر ، صدقنا ما قال الله .

إذن فالجدل والمناقشة يجب ألا تكون فى اليوم الآخر وقوفاً واستبعاداً واستغراباً وتعجباً ، بل يجب أن تكون المناقشة فى القمة العقدية ، وهى الإيمان . . هل نؤمن بالله أو لا نؤمن ؟ فإذا آمنا بالله فلابد أن نلتزم بما قاله ، وإن لم نؤمن بالله فلا يضير ألا نؤمن بما يقوله الله .

إذن فالقمة الإيمانية أولا هى أن نؤمن بالله ، فإذا آمنا بعد ذلك بالملائكة والكتب والرسل والقضاء والقدر خيره وشره ، ويوم القيامة لم يكن إيماننا بكل ذلك إلا لأن الله أخبر عنه ، لأنها أمور غيبية ، والأمور الغيبية التى لا تقع تحت الحس لا يمكن أن أصدقها إلا إذا قال بها مبدأ أثق فى صدقه .

فإذا توقف عقلى فى الكيفية فلا ضرر فى ذلك ، لأن معرفة الكيفية لا تعنى وقوع الحدث أو لا وقوعه ، فالوقوع شىء ، والكيفية شىء آخر .

ويوضح هذا قول إبراهيم الخليل عليه السلام لربه :

﴿ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِن قالَ بَلَى ولكِنْ لِيطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ (١) .

إبراهيم الخليل عليه السلام حين قال ﴿ أرنى كيف تحيي الموتى ﴾ جاء العلماء فقالوا : كيف يوجد ذلك التناقض الظاهرة فى القرآن ؟ وهذا التناقض لربه الذى يقولون عنه ظاهر فى أن الخليل يقول له به : ﴿ أرنى كيف تحيي الموتى ﴾ فيقول له ربه : ﴿ أو لم تؤمن ﴾ ؟ فيجيب إبراهيم : ﴿ بلى ﴾ . يعنى آمنت .

ومعنى آمنت هو معنى الإيمان . وهو اطمئنان القلب إلى عقيدة ،

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٦٠ .

بحيث لا تطفو تلك العقيدة مرة أخرى إلى الذهن لتناقش من جديد لا يكون ذلك إيماناً ، ولا تكون عقيدة ، بل إنها فكرة موضوعة للبحث .

فقول الله عن لسان الخليل « بلى » يعنى آمنت ، واطمأن قلبى . فلماذا يقول بعد ذلك : ﴿ ولكن ليطمئن قلبى ﴾ ؟ فكأن اطمئنان القلب كان مفقوداً عند الخليل ، ولذلك فهو يطلبه . وما دام اطمئنان القلب غير مود عنده ، فكيف يقول : « بلى » حين قال له ربه : ﴿ أو لم تؤمن ﴾ ؟

نقول : لا . . هذا التناقض الظاهرى جاء من إهمال لفظ فى الآية . وإهمال لفظ أو حرف يغير مجرى الفهم فى الآية .

فإبراهيم لم يسأل ربه : هل تحيي الموتى؟ وإنما سأله : ﴿ كيف تحيي الموتى ﴾ . فكان السؤال عن الكيفية ، لاعن وقوع الحدث ، فهو مؤمن بأن ربه يحيي الموتى ، إحياء الموتى عنده قضية مسلمة ، لكن المسئول عنه أنه يريد معرفة الكيفية .

فقوله : ﴿ بلى ﴾ أنا آمنت بأنك تحيي الموتى ، وهذا هو المطلوب التكليفى من العبد المكلف ، وهو : أن يؤمن بأن الله يحيي الموتى . أما معرفة الكيفية فهذا أمر لا يفيد فى العقيدة ، عرفتها أم لم تعرفها ، لأن انتفاعك بالإشياء لا يعنى ضرورة فهم كيفياتها .

فمثلا ، الأمى والبدوى والفلاح ينتفع بالكهرباء فى بيته ، لكن أيعرف كيف تأتى الكهرباء ؟ لا يعرف شيئاً من ذلك .

إذن فهو ينتفع بالحدث ، لكن معرفة كيفيته وعدم معرفتها لا يغير فى انتفاعه وعدم انتفاعه . هو ينتفع به كالفاهم لكيفية توليد الكهرباء تماماً .

كذلك الله قادر على أن يحيي الموتى ، وكونك تريد معرفة الكيفية فهذا كلام يتأتى إن كنت تريد أن تكون إلهاً .

ولكن الله سبحانه وتعالى يلفت إبراهيم عليه السلام لفتة عقدية ، هذه

اللفته العقدية هى أن يقول : ليس من عظمتى ولا من قدرتى أن أنقل إلى الغير أثر قدرتى ، ولكن العظمة أن أنقل إلى الغير بعض قدرتى ليفعل .

فالقوى من البشر إذا ما وجد رجلا عاجزاً عن حمل شىء ثقيل عليه ماذا يصنع معه ؟ يحمل عنه ذلك الشىء . إذن فقد عدى إلى الغير أثر قدرته ، ولكن العاجز ظل عاجزاً .

ولكن الله حين أراد أن ينقل إلى العاجز ينقل إليه قوة تفعل . . فأنت لا تقدر على أن تحمل ، فأنا لن أحمل عنك ، وإنما سأجعلك تقدر على أن تحمل .

تلك هى عظمة الحق فى أن ينقل قوته إلى فاقد القوة . ولكن البشر ينقلون قوتهم إلى فاقد القوة .

فكان جواب الحق سبحانه وتعالى فى الكيفية التى يريدها إبراهيم أن قال له : ﴿ فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ﴾ . تأملها جيداً . ثم قطعها ﴿ ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ﴾ وبعد ذلك تتجلى القدرة العظمى ، لا يقول الحق : أنا أدعو لك الطير فتأتيها الحياة ، بل ادعهن أنت :

تلك هى عظمة الحق تعالى فى آنه جعل من لايقدر بإرادة الله فى أن يفعل :

﴿ ثُمَّ ادْعُهُن يأْتِينكَ سَعْيًا ﴾ (١) .

لم يقل : أنا أدعوها ، لأن هذه عملية بسيطة عندى ، إنما العظمة أننى أجعلك تستطيع أن تدعوها فتأتيك سعياً .

إذن فقد أجابه الله بالكيفية على أبلغ مدى ، وعلى أوسع نطاق ، فى أن الحق يمتاز عن الخلق بأنه يعدى قوته إلى غيره ليفعل ، ولكن الخلق لايستطيعون إلا أن يعدوا أثر قوتهم إلى الغير ليفعلوا بها .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٦٠ .

إثبـات الغيبيـات

كان ولا يزال من المنطقى ألا يبحث المنكرون للبعث والملحدون فى أمر البعث على وجه الإنكار ابتداء ، وإنما المنطقى أن يبحثوا فى القمة ، وبعد ذلك إذا بحثوا فى القمة يوثقون الخبر : أقال الله ذلك أم لم يقل ؟

والحق سبحانه وتعالى لم يتركنا فى حيرة من أمرنا . . بل إنه سبحانه حين يريد عرض قضية غيبية مختلف فيها لأنها غيبية بعيدة عن إدراك الحواس ماذا يفعل ؟

يأتى بقضية متفق عليها ، ليجعل المنطق من المتفق عليه إلى المختلف فيه . . هذه قضية شائعة فى القرآن ، فمثلا قضية الحياة وكيف نشأنا ؟ وكيف خلقنا ؟ لم يشهد الإنسان كيف خلق ، وهو سبحانه وتعالى يقول :

﴿ مَا أَشْهَدْتُهم خَلْق السمٰوات والأَرْضِ ولا خَلْق أَنْفُسِهِم ﴾ (١)

كيف نعرف خلقنا ؟ ومن خلقنا ؟ هو سبحانه الذى يقول لنا كيف خلقنا . إذن فهذه مسألة وضع فيها الحاجز أمام النشاط الذهنى العلمى فى أن يعرف كيف بدأ الخلق ؟

مسألة مفروغ منها عجزنا عن أن نعرف علمياً ، وبالعلم التجريبى كيف خلقنا ؟ هذا غير ممكن إطلاقاً . . ما لم يكن خبر من الخالق فلا علم لنا بذلك . لايقدر الإنسان أن يعرف كيف خلق الله السموات والأرض .

ودعك من الحدس والتخمين الذى يقع فيه القوم الذين يكلفون عقولهم فوق طاقاتها ، وفوق مجالها . . فالعقل مخلوق لكى يبحث علماً تجريبياً فى مادة أمامه ، أما علم لاتجرى عليه تجربة فلا يمكن أن تجىء منه حقيقة علمية أبدا .

---

(١) سورة الكهف ، آية : ٥١ .

فإذا أرادوا أن يعرفوا كيف خلقوا ، وكيف خلقت السموات والأرض فليرهفوا آذانهم لمن خلق ليقول لهم : كيف خلقتكم ؟

ولما أراد الله أن يفهمنا كيف خلقنا ، وكيف خلقت السماء والأرض قال لنا : الإنسان الأول خلقته من سلالة من طين . . ومرة قال : من تراب . . ومرة قال : من طين . . ووصف الطين مرة وقال : إنه حمأ مسنون . . وقال مرة : من صلصال كالفخار . .

فجاء المستشرقون وقالوا : القرآن فيه تعارض . .

نقول : وهل التنقل بين المراحل تضارب ؟ التراب إذا جاء عليه الماء صار طيناً ، والطين إذا ظل مدة ينتن ويعطب ، ويصير حمأ مسنوناً متغير الرائحة ، وإذا ترك ليجمد صار صلصالا كالفخار . فهذه مرحليات ، وليست تناقضاً .

هذا الكلام لو كان الطين ليس من التراب ، ولو كان الحمأ المسنون ليس أصله الطين . إذن هذه مرحليات فى حدث الخلق فقط .

وهذا أمر غيبى قصه علينا ربنا ، ونحن صدقناه ، لأننا نثق بالله وتصدقه ، إنه خلقنا من تراب ، من طين ، من حمأ مسنون ، من صلصال كالفخار .

لكن الحق سبحانه حينما يريد أن نعرف صـدقه فى هذه القضية يأتى بأمر محس ، ليجعله الدليل على صدق الأمر الغيبى .

نحن لانعرف كيف جاءتنا الحياة ، وكيف تعود الحياة ، ولكننا نعرف بالتأكيد كيف نموت ، إذن فقد جعل الله ظاهرة الموت الحسية التى نراها وسيلة لتصديق الظاهرة الغيبية التى لم نرها ، وهى الحياة الأولى والحياة الأخرى .

إذا مات الإنسان فأول شىء يخرج منه روحه ، وهى آخر شىء أودعه الله فيه ، قصة الحياة : صلصال كالفخار ، ثم نفخ الروح ، فصار الجسد حياً . إذن آخر شىء جاء له فى الحياة هو نفخ الروح ، فأول شىء يخرج منه هو الروح .

إذا جئت إلى طريق وسرت فيه إلى نهايته ، ثم أردت العودة فى الطريق فآخر محطة وصلت إليها هى أول محطة ترجع منها . . إذن فقصة الحياة هكذا ، وقصة الموت تجىء بالرجعة ، فآخر شىء أودع فى الإنسان هو أول شىء يخرج منه ، وهو الروح .

ثم يتفتت الجسد . . وهذا أمر نراه . . الميت بعد أن يموت ويبقى مدة يتصلب ، هذه هى الصلصالية ، هى المرحلة الثالثة ، وبعد أن يتصلب (الفخارية) ينتن ويرم ويتحلل ، وذلك هو الحمأ المسنون . .

ثم يتبخر المائية منه ، فيصير ترابا ، هذا مشهد نراه كلنا ، فإذا قال الحق : أنا خلقتك من تراب ، ومن حمأ مسنون ، من صلصال كالفخار ، ونفخت فيك الروح ، فلكى نصدق هذا فعلينا أن نرى كيف تذهب منا الحياة ؟ نجدها عوداً على بدء . تتبين بما أحسسنا فى الموت صدق الله فيما أخبرنا به من الحياة .

ولذلك نعجب حين يقول الله فى سورة الملك :

﴿ تَبَارَكَ الذِى بِيَدِهِ المُلْكُ وهُوَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ * الَّذِى خَلَقَ الموْتَ والحَيَاةَ ﴾ (١) .

كان المفروض أن يقول : خلق الحياة والموت . لكنه قال : الموت والحياة ، لأن الموت ممكن ملحظياً وتجريبياً أن نراه ، وبعد ذلك تستدل من وقائع الموت وترتيبها عكسياً على وقائع الحياة .

فلا بد إذن أن تجىء مسألة الموت ، لأن الموت سيظل المنفذ والدليل على معرفة كيف أن الله صدق حين قال فى الحياة كذا وكذا ، وحين قال فى البعث كذا وكذا :

إذن فالحق يعرض علينا أشياء مسلمة ، كما يعرض علينا خلق السموات

---

(١) سورة الملك ، آيتا : ١ ، ٢ .

والأرض والجبال ، وهى مسلمة أيضاً ، ولم يدع خلقها أحد ، فهو يقول لنا مثلا :

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهادًا * والجِبَالَ أَوْتادًا ﴾ (١) .

لوكنا لم نجعل لكم مثل هذه النعم كان من المعقول ألا تصدقونا ، لكننا عملنا ، وهذا يدل على قدرتنا .

وما دمنا بدأنا ذلك بإبداع لم يسبق له مثيل ، فحينما نكلمكم فى البعث لماذا تكذبون ؟

هل الإعادة أهون أم البدء ؟

بل الإعادة أهون ، لأنها من شيء كان موجوداً . فإذا كان بدأ من لاشيء ، أفتحيلون عليه أن يعيد من شيء ؟

إذن فتلك المقدمات التى يقدمها الله تعالى بين يدى يوم القيامة لاتجد أحداً يختلف عليها ، مما يؤكد قدرته على إعادة الخلق مرة أخرى .

---

(١) سورة النبأ ، الآية ٦ : ٧ .

الدهـــريون والفساد

حينما أعلن الحق تشديد العقاب على الدهريين المنكرين للبعث فى سورة النبأ ، علل ذلك التشديد بقوله تعالى :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُون حِسَابًا * وكذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴾[1]

كيف لايرجون حساباً ؟ لأنهم لايؤمنون بالمحاسب ، أو يؤمنون بالمحاسب ، ولكنهم ينكرون الإعادة ثانية إلى الحياة بعد الموت ، وبعد أن كانوا عظاماً ورفاتا .

وإذا استقرأت فساد الدنيا وجدته ناشئاً من أن الناس لايرجون حساباً فحين لايرجوأعضاء المجتمع حساباً على تصرفاتهم ، ولايتوقعون جزاء على انحرافهم ، ينطلق فرد فى حركة حياته كما يحب وكما يشتهى ، وكما يهوى :

إذن فالضامن لصلاح المجتمع هو بعينه الضامن لصلاح الآخرة . إذا كان الدهريون قد حصل لهم العذاب بسبب عدم توقعهم للجزاء ، فعدم توقع الحساب أيضاً يجعل الإنسان ينفلت فى حركة حياته ، غير تقيد فيها لابنظام قيمى ، ولا بنظام عقدى ، لأنه لايتوقع حساباً .

أما إذا توقع المجتمع حساباً فى الدنيا ، فحين يتذكر كل إنسان أنه سيحاسب على تصرفه ، ينتظم الكون ، ويصلح المجتمع .

والمجتمع لايتوقع حساب إما لأن وليه أو حاكمه غافل ، لا يلقى بالا لتصرفات رعيته ، ولا يوقع جزاء على الجرائم ، أو لأن المجتمع نفسه لايحاسب المجرم ، أو لأن نفس الإنسان لاتحاسبه على ما اقترف .

إذن المحاسب فى مجتمعنا سيكون ثلاثة أشياء .

---

(١) سورة النبأ ، آيتا : ٢٧ ، ٢٨ .

الأول : الحاكم الذى نصبه الله ليقيم حدوده فيه .

الثانى : المجتمع .

الثالث : النفس .

وهذه الثلاثة ، هى التى انتهت إليها مدارس الجزاء الحديثة كلها . إلا أن هذه تمتاز بأن هناك حساباً نرجوه بعد هذه الدنيا .

ونقول : إن القرآن أو المذهب العقدى الإسلامى لم يهمل هذه الثلاثة ، لكن ما رأيك فيمن يحتاط للجريمة بحيث لاتقع عليه عين الحاكم ، ولاعين المجتمع إن لم يكن له وازع من داخل نفسه يقول له : إن عميت على قضاء الأرض ، فلن أعمى على قضاء السماء .

إذن فالعاصم النهائى القوى الذى يستوعب كل هذا هو أن يعتقد الإنسان أنه محكوم أمام عين خبير لاتخفى عليه خافية ، لا أستطيع أن أستتر عنه ، وإنى مردود إليه ليحاسبنى ، فهبنى أمنت من جزاء المجتمع ، ومن جزاء الحاكم ، وضميرى تبلد ، فماذا يكون الموقف ؟

الموقف : ألا يكون عاصم من الشر ولا من الفساد إلا وازع الدين ، والإيمان بالله رقيباً وحسيباً ، لاتخفى عليه خافية ، وبأنى لامحالة واقف أمامه ، وهذا يجعل الإنسان لايفكر فى الشر مجرد تفكير .

لكن الحاكم والمجتمع والضمير يمكن أن ينفلت منها الإنسان .

إن الذين لايرجون حساباً فى الآخرة يفسدون الفساد الأكبر والأصيل من القمة إلى أصغر الصغائر . أما فى الدنيا أيضاً فالفساد لايتأتى إلا إذا كنا لانرجو حساباً .

هب أن مجتمعاً وجد فيه حاكم ، إلا أن الحاكم غير عادل ، ومعنى غير عادل : أنه يخص طائفة بأن ينفذ عليها القوانين ، وطائفة أخرى لاتنفذ عليها القوانين .. بالله إذا رأيت هذا فماذا يكون الموقف ؟

المجتمع سيختان : : يعنى يقول : أنا أستتر بالجريمة ما أمكن .
إذن حين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما هلك من كان قبلكم بأنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد » . فهذا هو الذى يصنع تفسخا فى المجتمع كله من أعلاه إلى أدناه :

وكذلك إذا كان الحاكم غافلا ، ليست له عين يقظة فإن المفسد يقول : ومن الذى يربنى للحاكم ؟ ومن هنا يأتى الفساد أساساً من الإنكار قاعدة الجزاء فى اليوم الآخر ، ثم فى الدنيا .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُم ورَسُولُه ﴾ (١) :

هنا وازع دينى قد يفسده الجو المحيط بالمؤمنين .. ولكن هناك معيار فى النفس يظهر من قوله تعالى :

﴿ فَطَوَّعت لهُ نَفْسه قَتْلَ أَخِيه فقَتَلَهُ فأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ (٢)

يعنى أنه بعدما أرضى نفسه بعار الجريمة ، وقتل أخاه ، تنبه فيه شىء ، فندم ، ويقول الحق :

﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إثْمٌ ﴾ (٣) .
ويقول : ﴿ إنْ جَاءَكُم فاسِقٌ بِنَبإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قوْمًا بِجَهَالة ﴾ (٤)
واحد يشنى نفسه بأن ينم على إنسان ، أو لشىء به وشارته . . هو

---

(١) سورة التوبة آية ١٠٥ .
(٢) سورة المائدة آية : ٣٠ .
(٣) سورة الحجرات ، آية ، ١٢ .
(٤) سورة الحجرات ، آية ٦ .

أرضى نفسه بالفعل . . وذلك لكراهيته لذلك الإنسان ، ولكن حين تقع العقوبة على ذلك الإنسان ماذا يحدث له ؟

تؤنبه نفسه ، هذه هى مدرسة الضمير .

لكن الضمان الذى فوق المدرسة الأخلاقية والمدرسة الاجتماعية ، ومدرسة الضمير ، هو الضمان الدينى . . الذى يعتقد فيه الإنسان حساباً من إله خبير يعرف كل شىء .

إذن فقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُم كَانُوا لا يرْجُون حِسابًا ﴾ علة لفسادهم ، وعلة لكفرهم ، وعلة لاستهزائهم ، وعلة لوقوفهم من محمد صلى الله عليهِ وسلم موقف الصد ، وموقف العدوان ، ومواقف الاضطهاد ، كل هذا ناشئ من أنهم ﴿ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسابًا ﴾ .

يوم تبلى السرائر

خلق الله الإنسان وله مهمة كبرى فى الكون ، ولذلك كانت هناك عناية من الخالق بالإنسان . عناية ملحوظة فى كل خطوة من خطوات حياته . يدل عليها قول الحق سبحانه :

﴿ إنْ كلُّ نَفْسٍ لمَّا عَلَيْها حافِظٌ ﴾ (١)

وتتجلى عناية الله تعالى بالإنسان فى هذا اللفظ الذى يحتمل العناية والحفظ ، كما يحتمل الرقابة الدقيقة على أعمال الإنسان ، الأمر الذى يدل بالفعل على قيمة الإنسان ، وقيمة المهمة التى نيطت به من قبل المولى العليم .

ويدل على معنى الحفظ والرعاية قوله تعالى فى آية أخرى :

﴿ لَهُ مُعقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ومِنْ خَلْفِهِ يَحْفظُونَه مِنْ أَمْرِ الله ﴾(٢)

أى إن ذلك الحفظ من أمر الله . . فالإنسان منا تمر به أحداث كثيرة لايستطيع أن يدفعها بقوة ، ولا يمكن لحيلته أن تفكر فيها . . وفى النهاية يقول : هذه مسألة إلهية . لاحيلة لى فيها .

إذن فمعنى أن الله وكل بالإنسان من يحفظه من الأشياء التى تفوق طاقته وقدرته : أن هناك شيئاً يسقط على الإنسان فجأة ، ولو لم يوجد من الله تعالى حافظ لتلك النفس البشرية لكانت الأحداث المفاجئة التى لاتدخل تحت طاقة الإنسان وقدرته تقضى عليه .

إذن فالله تعالى يقول للإنسان : أنت لست متروكاً لرعاية نفسك بنفسك ، ولا للعناية بها ، فهناك أشياء وأحداث فوق عنايتك ورعايتك ، ولولا أنى

---

(١) سورة الطارق آية : ٤ .

(٢) سورة الرعد ، آية ١١ .

سخرت لك من جنودى لفتكت بك الأحداث ، وماذاك إلا لأن لك مهمة وغاية ونهاية أريدك من أجلها .

والمعنى الذى يدخل فى موضوعنا أكثر هو أن يكون الحفظ معناه : الرقابة ، والعلم بكل ما يكون من هذا المحفوظ ، كما يقول تعالى :
﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُم لحَافِظِينَ * كِرامًا كاتِبِينَ ﴾ (١) .

فكلمة حافظ معناها : إعطاء ما للإنسان ، وما على الإنسان ، لأن كل شىء لك يقابله شىء عليك ، والذى كان لك كان على الله ، والذى عليك هو عليك .

إذن لو كان المراد بالحفظ هو الحفظ من الكوارث لقال : وإن لكم لحافظين . ولكنه قال : ﴿ وإن عليكم لحافظين ﴾ : ويؤيده قوله تعالى :

﴿ إنْ كلُّ نفْسٍ لـمَّا عليْها حافِظٌ ﴾ .

وهذا دليل على أن هذا الحفظ هو من أجل الجزاء فى الدار الآخرة .

و ﴿ إن ﴾ فى الآية معناها النفى . يعنى : لاتوجد نفس تفلت من الحافظ . وتتجلى أهمية الحفظ والإحصاء لأعمال الإنسان من دقة الاستعمال القرآنى الكريم ، فلو قال الله : إن نفس إلا عليها حافظ . لكان الكلام مستقيماً ، ومعناه لانفس إلا عليها حافظ ، ولكنه تعالى جاء لها بسور وهو ﴿ كل ﴾ لكى تفيد الإحاطة من طريقين .

الأول : الفكرة فى سياق النفى .

الثانى : السور الكلى . يعنى لاتظن نفس من النفوس أنها بمنأى عن الرقابة وعن الحفظ .

وهذه الرقابة هى رقابة الله تعالى ، أو رقابة من كفله الله ممن يكتبون .

---

(١) سورة الانفطار آيتا ١٠ ، ١١ .

وفى سورة الطارق نجد المناسبة بين النجم الثاقب وبين الحافظ واضحة ، من حيث إن النجم الثاقب يثقب الظلام وينفذ إلى دقائق الأشياء ، والرقيب كذلك مطلع على الأشياء . أى إنه كما أن النجم الثاقب يثقب الظلام فيرينا خبايا الأشياء ، فإن الحافظ ثاقب يثقب النفس سرائرها . ولهذا جاء فى سياق الآخرة :

﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾

إذن فالحق دائماً ينقلنا فى حديث القرآن عن الآخرة من الآيات الكونية إلى الآيات النفسية . كما جاء فى السياق عن الطارق والنجم الثاقب ، وهى آيات مرئية فى الكون ، ثم نقلنا إلى آياته فى النفس الإنسانية هى الملائكة الحفظة للأعمال الإنسانية .

والكل لصالح الإنسان فالآية الكونية لصالح النفس ، لكى نعرف بها حركاتنا وسعينا ، والثانية كذلك لصالحنا ، لا فالله يعتنى بالإنسان هذه العناية ، ثم يتركه سدى . بل عنايته به دليل على أن له مهمة معه .

ولذلك نجد جميع السياقات القرآنية تدل على هــذا المعنى . يوجه القرآن نظر الإنسان إلى بداية خلقه ، ثم يلفت نظره إلى عناية الله به تلك العناية الفائقة ، ثم يصرح بأنه سبحانه قادر على إعادته ثانياً إلى الحياة :

﴿ وَإِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ (١) .

فلو كانت الدنيا وحدها هى الغاية كما يظن الدهريون ، فقد استوى الإنسان صاحب المنهج مع غيره من أعداء المنهج ، فإذا كان صاحب المنهج قد استقام فى الحياة واستقامت به الحياة ، فإن الذى يعادى المنهج يفسد فى الحياة ، فإذا انتهت الحياة بهذه النهاية فهى عبث .

إذن فقول الحق سبحانه :

﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ .

---

(١) سورة الطارق ، آيتا ٨ ، ٩ .

بعد قوله : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ والأُنْثَى ﴾ (۱) .

فى سياق آخر دليل على أن هذه هى سنة القرآن فى إثبات البعث .

فكأن الحق يقول : هذه العملية التى أعملها ، والهندسة العظيمة ، هل جاءت لهذه الفترة من الحياة الدنيا ؟ لا . إنما جاءت لفترة أخرى بعد هذه .

ثم للفت نظرك إلى أن هذه الفترة الدنيوية هى التى تعطيك خبر الفترة الثانية وهى الآخرة ، ومادام الله قد جعل عليك حفيظاً ورقيباً ، فلا يعقل أن تكون هذه الفترة سدى .

فالحفيظ والرقيب يعطيان معنى الحساب ، والحساب ممن ؟ من الذى يعلم خفايا الأمور ، من الذى يبلو السراء :

﴿ يَوْمَ تبلَى السرائِر * إِنَّهُ عَلَى رَجعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ .

وهنا يأتى الرد على منكرى البعث .. فهناك الدهريون الذين عاصروا نزول القرآن ، وقد كانوا ينكرون البعث ، فقالوا :

﴿ أَئِذَا كنَّا عِظامًا نَخِرةً ﴾ (۲) ﴿ أَئِنَّا لمبْعُوثُون ﴾ (۳) .

ولذلك قال الله تعالى :

ولذلك قال الله تعالى : ﴿ والسَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ * والأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ * إِنَّهُ لقَوْلٌ فَصْلٌ * ومَا هُوَ بالهَزْلِ ﴾ (٤) .

الرجع هو المطر : والمطر ينزل من السماء ، ثم يتبخر ، ثم يرجع مطراً

---

(۱) سورة القيامة الآيات ۳۷ — ۳۹ .
(۲) سورة النازعات آية : ۱۱ .
(۳) سورة الواقعة آية : ٤٧ .
(٤) سورة الطارق آيات ۱۱ — ۱٤ .

ثانياً ، يعنى والماء حين يرجع ويأخذ دورته ، ويعود ماء عذباً مرة أخرى؛ وقد تكرر دليل رجوع الماء ثانياً فى سورة الذاريات فقال تعالى :

﴿ والذَّارياتِ ذَرْوًا * فالحامِلَاتِ وقْرًا * فالجَارِياتِ يُسْرًا * فالمقسماتِ أَمْرًا * إنَّما تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وإنَّ الدِّينَ لَواقِعٌ ﴾(٤).

جاءت عملية الماء من أولها إلى آخرها ، وبعد ذلك قال : إنك سترجع . لأن الدورة هى الدورة ودورة الماء أنت تشاهدها ، وهى بعينها دورة الماء الدافق من بين الصلب والترائب ، والذى خلق منه الإنسان ، لأن الماء الدافق يشبه الرجع ، والأرض ذات الصدع تشبه الرحم يتلقى الماء فينبت الزرع .

إذن فالحياة كلها عبارة عن قوانين منسجمة ، وهذه القوانين المنسجمة يحكمها قانون واحد ، وهذا القانون الواحد ماض فى كل ألوان الوجود ، فى الكونيات العليا ، والكونيات السفلى .



تم بحمد الله وفضله

(٤) سورة الذاريات آيات ١ - ٦ .

محتويات الكتاب

الموضـــوع	صفحة

الموضـــوع صفحة

المعجـــزة القـــرآنية :

رقم الإيداع ١٩٨٣/٢٧٦٥

مطابع سجل العرب

هذا الكتاب ..

* العدل الالهى
* مواجهة التطرف
* مناط التكليف
* ما هو العقل ؟
* سر القضاء والقدر
* موسى والخضر
* الفطرة ووجود الله
* الأسماء والصفات
* لا اكراه فى الدين
* علاج الغفلة فى البشر
* المعجزة القرآنية
* الاعجاز الكونى
* خواطر شيطانية
* خواطر رحمانية
* أركان الاسلام
* الحصانة من الانحراف
* الفلسفة والبعث
* الغيبيات
* الدهريون والفساد
* يوم تبلى السرائر



ت : ٣٥٥٣٨٣٨



١٥٠ ق٠م